روايات مصرية للجيب

43

د. أحمد خالد توفيق

فانتازيا

أسطورة نهر

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لا بد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى

لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوماً ما .. سوف تقابل ونحن معها العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع

قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

١ - إلى أين ؟

قال لها المرشد :

- « ألاحظ انك مرهقة قليلاً اليوم .. »

نظرت له فى غيظ ولم تعلّق ..

كانت هذه من المرات القليلة التى تغادر فيها قصة فتدخل أخرى ، وبدا لها هذا مرهقًا .. كل الكوميديانات البارعين يعرفون أنه لا بد من مسافة لا بأس بها بين نكتة وأخرى ، لأن النكتة الجيدة تتلف سابقتها .. لا بد من فترة تسمح بتذوق النكتة السابقة واستحلابها قبل أن تقول التالية .. كانت بحاجة لهضم تجربة الملل تلك ، لكنه مصر على أن يدخلها قصة أخرى بمقاييس أخرى ..

قال لها :

- « اليوم تجربة مثيرة بحق .. سوف تمضين اليوم مع الرياضيين العظام الذين يحاولون حساب محيط الأرض ! »

نظرت له مذهولة .. إن غباءه يزداد يومًا بعد يوم ..

ـ « هل سمعت أن لى أية خبرة بالرياضيات ؟ لا خبرة ولا اهتمام .. إن ما تتكلم عنه هو الجحيم بعينه .. »

فكر قليلاً وهو يراقب المشاهد من النافذة ثم قال :

ـ « ماذا عن البحث عن لغز الثقوب السود ؟ سوف يكون هناك الكثير من المرح مع ميكانيكا الكم .. »

ـ « هل تحاول استفزازى أم انك مجرد معتوه ؟ »

فكر برهة ثم قال :

ـ « تاريخ رياضة البيزبول فى (بوركينا فاسو) ، أو فنون زراعة القمح فى جمهورية (التشيك) .. هل أنت مهتمة بهذا الموضوع ؟ سنمرح كثيرًا .. »

ـ « لا !!! »

ثم استدارت له وقالت فى توحُّش :

ـ « هل انتهت القصص أخيرًا ؟ هل انتهى التاريخ ؟ لا تقل إنك انتهيت من كل شىء فلم يبق إلا ميكانيكا الكم .. »

قال وهو يعقد كفيه على صدره :

ـ « ليكن .. لكنى كنت أتمنى أن أجوب بك رياض المعرفة البشرية .. الأشياء التى لا تعرفين أنك تعرفينها ، لكنى سأبرهن لك على عكس ذلك .. ماذا عن جولة بين عروض الشعر مع (الخليل بن أحمد) ؟ معارك الإعراب مع (سيبويه) ممتعة جدًا »

ظلت تنظر خارج النافذة محاولة أن تمضغ غيظها .. هكذا فهم أنها لا تطيق هذا .. فى الواقع سوف تخوض (عبير) فى المرة القادمة قصة لا بأس بها مع عباقرة اللغة العربية (الخليل بن أحمد) و(أبو الأسود الدؤلى) و(سيبويه) ، لكن ليسَ اليوم على كل حال ..

خارج النافذة ترى مشهدًا مألوفًا بعض الشىء ..

هذا النهر الأسمر الحالم الراقد تحت أشعة الشمس .. ليس حالمًا بالضبط بل هو أقرب للعصبية والجموح .. لكنه برغم ذلك مألوف لعينيها .. إنه النيل لا شك فى هذا ، لولا أنها ترى أفراس النهر تنزل فيه وعلى ضِفَتيه تغفو التماسيح فى كسل .. ثمة طوف فى الوسط

يقف عليه مجموعة من الأفارقة بثيابهم الوطنية يغنون وغناؤهم يتزامن مع حركة المجاديف ..

هو النيل لا شك فى هذا .. لكنها لا ترى الكورنيش ولا باعة الترمس ولا شرطة المسطحات ولا العشاق الجالسين وظهورهم للشارع حتى لا يتعرفهم أحد .. حتى لو كان هذا أعلى النيل فهى لا ترى القرى النوبية ولا ترى (حسين فهمى) يحاول إقناع (أحمد السقا) بحب مصر ، بينما تدوى أغنية (زى ما هى حبها) الرائعة ..

أى نيل هذا ؟

نظرت فى دهشة إلى المرشد الذى كان قد بدأ يغفو وهو يلوك تلك الأشياء الغامضة .. كيف يجرؤ على تركها تتساءل ؟ نهضت وهزته فى عصبية فأفاق مع الكثير من (بسم الله الرحمن الرحيم .. من ؟ أين ؟ متى ؟) ..

قالت فى عصبية :

ـ « ألن تشرح لى ؟ أين نحن ؟ »

ـ « هذا هو النيل .. إن من لا يعرف النيل حين يراه هو كفيف أو معتوه .. وبما أنك ترين جيدًا فإننى سأسمح لنفسى بـ .. »

ـ « نيل يعج بأفراس النهر وقبائل الزولو ؟ »

قال فى وقار :

ـ « ليسوا زولو يا نبراس الجهل .. الزولو فى الجنوب ولم ير أحدهم النيل .. هؤلاء كيكويو .. أو ماساى أو ماو ماو أو توركانا .. لا تنسى يا فتاة أن النيل طويل جدًا .. إنه يخترق عدة حضارات وبلاد .. حضارات ترقص بالرمح حول النيران ، وحضارات تستأجر فلوكة للنزهة فيه عصرًا .. »

ثم غلبه الطرب فراح بصوت أجش يغنى كما يفعل (عبد الوهاب) :

ـ « النيل نجاشى .. حليوه أسمر ..

أرغوله فى إيده .. يسبح لسيده

حياة بلادنا .. يا رب زيده »

قالت فى غيظ :

ـ « ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ »

ـ « هذا (أحمد شوقى بك) عندما يكتب بالعامية .. أى أن هذه أرقى صورة للعامية التى توشك أن تكون فصحى .. والآن هل ترغبين فى تجربة هذا العالم ؟ »

نظرت إلى الجو الساحر ذى العنفوان فى الخارج ، وتساءلت :

ـ « ليكن .. لكن هل أصير مجندة فى شرطة المسطحات ؟ أم أبيع الترمس الملوث بالتيفود ؟ أم أعمل فى السد العالى ؟ »

قال لها وقد سره أخيرًا انه موشك على الخلاص منها :

ـ « لا هذا ولا ذاك .. أنظرى لنفسك .. »

أصابها الذهول عندما رأت ما صارت إليه .. إنه ذلك الزى البريطانى الفكتورى الذى لبسته ألف مرة من قبل .. القبعة .. التايور .. التنورة الواسعة .. الدانتيل .. المظلة .. آخر ثوب يمكن أن يقوم فيه المرء بمغامرة على النيل ..

قال لها :

ـ « هذه المرة هناك الكثير من التجديد .. أنت صحفية بريطانية ! »

ـ « يا سلام ! لم أفكر فى هذا قط »

الحقيقة أنها لعبت دور الصحفية ألف مرة فى (فانتازيا) من قبل .. وهذه المرة اسمها هو :

ـ « مس (بارتريدج) .. (إلسترى بارتريدج) .. »

ـ « اسم صعب جدًا »

ـ « لكنه كذلك بريطانى جدًا ولن يتنازل المؤلف عنه حتى لو اضطر لتمزيق هذه القصة وإلقائها فى القمامة .. أنت تعرفين أنه مصاب بنوع من الوسواس القهرى تجاه الأسماء .. على الأرجح هذا اسم فتاة بريطانية فعلاً .. والآن هيا .. لقد تأخرت ! »

تأخرت عن ماذا ؟

نظرت خارج القطار فوجدت أن هذه (لندن) ..

بالتحديد خارج بناية جريدة (هيرالد) ..

النصف الأخير من القرن التاسع عشر ..

* * *

٢ ـ أين ليفنجستون ؟

لورد (مكدويل) رئيس تحرير الجريدة هو نمط بريطانى آخر ، بأناقته والشارب الأبيض الكث الذى يقف عليه صقران ، والسيجار فى يده ، والسترة ذات الصديرى الذى تخرج منه وتعود إليه عشرات السلاسل الذهبية ، وتلك الساعة الثمينة فى جيب الصديرى التى يخرجها من حين لآخر ..

ولغته أيضًا بريطانية من الطراز الذى يثير الغيظ :

ـ « مس (بارتريدج) لو كان لى أن أفترض هذا .. أرجو أن تأخذى راحتك وإننى لأسمح نفسى عمدًا بحرية أن أفترض أنك لا تنفرين من رائحة التبغ ، وأنك قد ترحبين بشراب خفيف لو سمحت لى بذلك .. لقد تأخر المستر (مورتون) عن موعده .. دقيقة كاملة .. هذا قد يدفعنى لافتراضات غير مستحبة لو كان لى أن أقول هذا ، وإننى لأعطى نفسى الحرية كاملة فى أن أقول إنه لو كانت مواعيد مستر (نورتون) بهذه الدقة فإن مشروعى لن يخرج إلى النور .. إن عدد الدقائق

التى تأخرها السيد الطيب لخليق بأن يجعلنى ثريًا لو أنه تحول إلى مال بحق السماء .. ها ها ها !! »

راحت تنظر له فى غباء متسائلة فى سرها : لماذا لا يتكلم مثل الناس ؟

بعد قليل جاء الشخص المنتظر .. لابد أن هذا هو (مورتون) ..

كان رجلاً متأنقًا قوى البنية ، له لحية قصيرة وعينان تلمعان بالتصميم وبعض القسوة ..

قال لها (مكدويل) مقدمًا الرجل :

ـ « مس (بارتريدج) .. أهم صحفية عندنا .. أخشى أن هناك مجالات لا أجرؤ على تصور المرأة فيها ، لكن مس (بارتريدج) تبرهن بإصرار على أننى مخطئ .. أما السير (هنرى ستانلى مورتون Stanley) فهو المستكشف البريطانى الغنى عن التعريف .. »(*)

قال (ستانلى مورتون) بصوت غليظ جدير بأن يكون صوته :

(★) نحن فى فانتازيا لكن الأساس التاريخى للقصة والبحث عن ليفنجستون حقيقيان .. كل المستكشفين المذكورين حقيقيون كذلك ..

- « فى الواقع أنا نصف أمريكى نصف بريطانى .. »

قال رئيس التحرير :

- « لقد شارك فى الحرب الأهلية الأمريكية كما شارك فى غزو (أثيوبيا) .. يقولون إنه المغامر الذى لا تلين له قناة .. »

ثم إنه اتجه إلى لفافة ورقية فعلقها .. كانت عليها خارطة تمثل شمال إفريقيا ..

- « ما هذا النهر ؟ »

قالت (عبير) فى تردد :

- « إنه النيل .. »

وإن شعرت بأن هناك شيئًا ما خطأ فى هذا الرسم .. ثم أدركت أن الخط الذى يمثل النيل ينتهى عند أعلى السودان .. ما السبب ؟

قال رئيس التحرير :

- « اسم النيل مشتق من اللفظة الإغريقية (نيلوس) .. ثانى أطول نهر فى العالم .. ٤١٥٠ ميلاً .. اللغز الذى

جاء بالحياة لأقدم حضارة على وجه الأرض .. النهر الذى يجرى بلا توقف وسط الصحراء وبرغم هذا لا يجف أبدًا .. فقط ينخفض مستواه ثم يرتفع فى أشهر الصيف ليجتاح كل شىء .. لقد حير هذا النهر الكثيرين .. أرسل (نيرون Neron) ضابطين إلى الجنوب ليعرفا من أين يأتى .. غابا فترة ثم عادا يخبرانه أنهما وصلا إلى منطقة مستنقعات كثيفة عجزا عن اجتيازها .. فيما بعد زعم تاجر إغريقى أنه وصل إلى سلسلة من الجبال يغمرها الجليد .. وقيل إن النيل يتكون عندما يذوب الجليد من فوق قمم هذه الجبال كما ينبع نهر (الجانج) من الثلج الذائب فوق جبال (الهيملايا) .. طبعًا هذه هى جبال القمر التى تحدث عنها الكتّاب وأثارت خيال المؤلفين .. »

ثم أشار إلى (عبير) وقال :

- « لكن هذا ليس كل شىء .. »

ثم أخرج من درج مكتبه الفاخر صورة كبيرة .. صورة تمثل رجلاً أشيب مذعورًا ولها هذا الشحوب الذى يميز صور الموتى ..

تأملت (عبير) الصورة وقالت :

ـ « ما سبب موته ؟ »

نظر لها فى رعب وكذا فعل (ستانلى) .. وهتف :

ـ « هل وصلتك أية أخبار عنه ؟ »

قالت بلا مبالاة :

ـ « لا أعرف أى شىء .. لكن لابد أن يكون صاحب هذه الصورة قد توفى منذ عامين على الأقل .. »

ضحك وأشعل سيجارًا آخر ووسط سحب الدخان هتف :

ـ « لنحمد الله أنها مزحة .. هذا هو د. (ليفنجستون Livingstone) .. الطبيب الأسكتلندى فائق الشهرة الذى يتساءل العالم كله عن مصيره .. لقد ذهب مع أسرته يستكشف صحراء (كالهارى) ثم قرر أن يستكشف منابع النيل عام ١٨٦٦ .. كانت النتيجة هى أننا لم نسمع عنه شيئًا حتى اليوم ونحن فى عام ١٨٧١ .. كل العالم يسأل سؤالاً واحدًا هو (ماذا حدث لليفنجستون ؟) .. »

أولاً كان يجب أن تكون أول من يعرف هذا الموضوع لأنها صحفية .. لكن هذه (فانتازيا) حيث تلعب دور (آخر من يعلم) طيلة الوقت .. ثانيًا .. من الأحمق الذى يأخذ المدام والعيال لاستكشاف صحراء (كالهارى) بدلاً من أخذهم إلى السيرك أو حديقة الحيوان ؟

قالت فى غيظ :

ـ « إنه أحمق بالتأكيد وأتمنى أن يكون قد مات .. »

قال (ستانلى) وهو يشعل سيجارًا رائحته ألعن من سيجار رئيس التحرير :

ـ « فلنأمل أن لا .. أنا قادر على أن أجد هذا الرجل .. »

ـ « لو كان حيًا .. »

ـ « أو أعود بجثته .. »

ـ « لو ظلت له جثة .. »

ـ « أوه .. لابد أن يبقى منه شىء .. »

قال (مكدويل) لـ (عبير) وهو يعيد الصورة والخارطة إلى درج مكتبه :

- « وهذه هى مهمتك بالضبط »

- « أية مهمة ؟ »

- « (هيرالد) سوف تمول هذه الحملة .. سنتحمل كل مليم .. فى المقابل سيكون على السير (ستانلى) أن يكتب لنا مذكراته وتكتبى أنت القصة كاملة .. البحث عن منابع النيل .. البحث عن (ليفنجستون) .. إن الجواب عن السؤالين واحد .. »

نظرت له فى ذهول وهتفت :

- « هل تريد منى وأنا امرأة رقيقة مرهفة شفافة أن أجوب مجاهل إفريقيا التى لم يجبها أوروبى من قبل ؟ »

هتف رئيس التحرير :

- « هذا ما أريده بالضبط .. هذا هو ما سيرفع مبيعات جريدتى إلى السماء .. (الخناشير) من أمثال (ستانلى) لم يعودوا يحركون خيال العامة .. بينما سوف يتحمس الناس لمعرفة هل تلتهمك الأسود أم لا ؟ ستكون لحظة رائعة عندما ننشر صورة قدمك الجزء الوحيد الباقى منك عندما يعود بها (ستانلى) من

إفريقيا .. سوف نبكى جميعًا بحرقة ونحن نتبادل أنخاب أعلى توزيع شهدته الصحافة البريطانية ! »

أشعل (ستانلى) سيجاره (هل هو السادس ؟) ، وقال :

- « فى رأيى أن أكلة لحوم البشر أكثر إثارة .. يجب أن تنشر صورتها وهى مقيدة وجالسة فى قدر كبير يغلى ماؤه .. هذا يثير خيال العامة برغم أننى لم أر قبيلة إفريقية واحدة تطهو ضحاياها أحياء كاملين فى قدر .. لقد تكفلت الصحافة ورسوم الكاريكاتور بجعل هذا المشهد محفورًا فى ذهن الناس .. »(*)

هتفت (عبير) فى غيظ :

- « أنتما مخبولان تمامًا ! »

وفى عصبية غادرت المكتب ..

فقط لتجد المرشد واقفًا جوار الباب يلعب بالقلم الجاف الشهير .. تك .. تتك .. تك .. تتك .. يمكنك أن تجن تمامًا .. قال لها دون أن ينظر نحوها :

(*) حقيقة .. برغم أننا فى فانتازيا ..

- « لو كان لى أن أوصى بشىء فهو : أنت هنا للمغامرة فكفى عن السخف .. لا تذهبى للملاهى ثم ترفضى ركوب القطار الأفعوانى .. إذن لماذا ذهبت للملاهى ؟ كان خيرًا لك أن تبقى فى دارك »

قالت فى عصبية :

- « يريد منى أن أضيع شبابى فى مجاهل إفريقيا »

- « ستعودين على الأرجح .. لن يروق مذاقك لأكلة لحوم البشر .. »

- « وهذه المهمة العجيبة .. أنا لا أذكر منابع النيل التى ذكرت فى كتب الجغرافيا ، لكن أصغر طالب فى مدرسة إعدادية يمكنه أن يخبر هؤلاء الحمقى بها .. »

ضحك متخابثًا ، وقال :

- « لاحظى أن هؤلاء هم من أفنوا حياتهم ولاقوا الأهوال ، فقط ليجد الطالب هذه المعلومات جاهزة فى كتبه .. يقرأ الطالب كلمة (أمريكا) فى كتابه ببساطة .. يا سلام !! لقد احتاجت هذه الكلمة إلى رحلة مروعة قام بها (كولومبوس) ورجال هلكوا وثورات على

السفينة .. إلخ .. ثم راهب يدعى (أميرجو فسبوتشى) يرسم الخارطة .. ثم حروب استقلال وحروب أهلية .. كل هذا حتى يجد الطالب كلمة (أمريكا) فى كتابه .. رجال كثيرون أفنوا حياتهم كى يجدوا منابع النيل ، وفى النهاية تلخصت حياتهم فى بضعة خطوط مرسومة فى كتاب الجغرافيا .. أنت ستكونين مع هؤلاء الرجال . »

قالت فى غيظ :

- « هذا لأننا فى زمن متخلف .. فى القرن الحادى والعشرين تستطيع أية طائرة أن تحلق فوق الأحراش وتعرف الحقيقة كاملة .. »

- « الم تفهمى بعد ؟ لا توجد طائرات فى هذا الزمن وليست هناك طريقة للتعلم إلا الطريقة الصعبة .. لكن أؤكد لك لولا هذه المعاناة فى أحراش إفريقيا لما تمكن هؤلاء القوم من اختراع الطائرات فيما بعد .. الحضارة عملية تراكمية .. نحن العرب وصلتنا نتائجها النهائية ، لكن هؤلاء وضعوا النتيجة فوق الأخرى حتى صار هناك بناء ثابت شامخ .. من السهل أن تسخرى من الهاتف الذى اخترعه (جراهام بل) لأنك تحملين

المحمول .. لكن من دون هذا الهاتف الذى يشبه عشة الفراخ لما صار بوسعك أن تحمليه .. ولهذا يستعمل العرب المحمول لكنهم لا يصنعونه »

ظلت تفكر فى كلماته بعض الوقت .. ليس أحمق تمامًا .. لذا سألته :

ـ « إذن هل أقبل ؟ »

ـ « ليس لديك سبيل آخر .. »

هكذا بعد دقيقة كانت تقرع باب رئيس التحرير ..

* * *

٣ ـ أيام مع ستانلى

فى مكان ما من الشمال تفرغ (عبير) من نشر آخر شىء على حبل الغسيل .. منامة أخيها الصغير .. تنظر فى الطبق البلاستيكى الذى دخلت به الشرفة ، ثم تقلبه فى الشارع لتتخلص مما بقى فيه من ماء .. ترمق الغسيل فى رضا وفخر .. أمها تقول لها دومًا : « أحب رؤية الغسيل الذى علقته يداك .. »

هذا النظام .. صف للثياب الخارجية .. صف للمنامات .. صف للثياب الداخلية والغيارات .. أما الصف المختفى تمامًا والذى يجب ألا تراه الشمس فهو الخاص بثيابها هى ..

تتجه للمطبخ حيث أمها جالسة على كرسى صغير تلف أصابع (المحشى) وترصها بدقة فى تلك الحلة .. إنها تفعل ذلك للغد على سبيل توفير الوقت ، وسوف تحفظ الحلة فى الثلاجة .. الأب فى غرفة النوم ينعم بقيلولة العصر .. بعد يوم مرهق من العمل الإدارى فى شركة المطاحن وبعد تناول الغداء لا يصير بوسعه أن يبقى عينيه مفتوحتين ربع ساعة ..

أخوها الأكبر فى مكان ما مع رفاقه ، والأصغر يركب الدراجة الثلاثية فى الحارة ..

تتجه لغرفتها وتنتقى أفضل ثوب عندها .. تضع لمستين من إصبع الروج الذى تحتفظ به أمها منذ خمس سنوات .. ثم تعض شفتها السفلى لتخفى التأثير أكثر .. سمراء .. جميلة .. ربما كانت لتشعر بسعادة أكثر لو كانت بيضاء كمرضى البهاق فى بلد كمصر .. لكنها بالفعل تحب ان ترى وجهها فى المرآة ..

تضع رشة عطر ثم تتجه للمطبخ لتقول لأمها :

- « سأذهب إلى الدرس .. هل تريدين شيئًا ؟ »

تقول هذا وهى تقف وراء ظهر الأم وعلى بعد مترين كى لا تقهر رائحة العطر رائحة المحشى ، وكى لاتبدى الأم تعليقًا على أحمر الشفاه ..

تقول الأم دون أن تلتفت :

- « كونى حذرة يا (كوثر) .. هاتى لنا بجنيه فولاً وبجنيه طعمية للعشاء .. »

تغادر (عبير) البيت .. وقد عرفت أن اسمها (كوثر) وأنها طالبة ثانوى ..

هى لا تتعمد شيئًا .. لكنها تعرف أنها ستقابله .. تعرف أنه سيكلمها .. تعرف أنه سيمشى بجوارها فترة طويلة ثم يقدم عرضه بأن يجلسا على النيل بعض الوقت .. تعرف أنها سترفض ..

ومن بعيد تسمع صوت (عبد الحليم حافظ) من مذياع ما يغنى :

- « يا تبر سايل بين شطين ياحلو يا اسمر .. لولا سمارك جوا العين ما كان تنور » .

★ ★ ★

القافلة تتحرك عبر سهول إفريقيا .. فى المقدمة (ستانلى) و(عبير) .. ثم يأتى الحمالون الأفارقة .. ثم جيش عرمرم من الرجال السود ..

هذه هى الحملة التى مولتها (هيرالد) من أجل البحث عن (ليفنجستون) .. وكان الغريب بالنسبة لـ (عبير) أن الحملة هبطت من البحر على ساحل إفريقيا

الشرقى متوغلة فى الداخل .. كانت تتوقع أنهم سيبحرون عكس سريان النهر بدءًا من (رشيد) أو (دمياط) فى مصر ، لكن (ستانلى) اختار أن يرسم خطًا عرضيًا يقطع القارة ويتجه إلى حيث فقد (ليفنجستون) ..

الأفارقة يغنون .. عندما يغنى ٢٠٠٠ رجل فإن النتيجة تكون مرعبة .. لابد أن الأسود البائسة أصابها انهيار عصبى ..

المسيرة تتقدم وسط الأحراش الكثيفة .. إفريقيا كما خلقها الله .. لا توجد طرق ولا مدن وإنما أعظم معرض للطبيعة على وجه الأرض ..

كان (ستانلى) رفيق سفر لا بأس به وإن خلا من روح المجاملة .. وكان شديد البأس عنيفًا مع الوطنيين .. أكثر من مرة انتزع سوطه ليمزق ظهر أحد الحمالين أمام رفاقه ، وكانت (عبير) ترتجف وهى ترى الغضب فى عيون الرجال .. هناك شرارة ما يصر (ستانلى) على تقريبها من برميل البارود ، لكنه واثق من نفسه يؤمن أنها لن تقترب أبدًا أكثر من اللازم ..

كان هو العنصرية مجسَّدة ، وبالتأكيد لم يعتقد لحظة أن الإفريقى كائن بشرى .. فلو كان مرافقو الحملة مجموعةً من القرود لكان أكثر تعاطفًا ..

هذه أشياء لم تستسغها فيه .. لكنها لم تنكر أنه كان بارعًا ..

عندما انتصف النهار الرابع توقف ، وأعلن للرجال :

- « سنقيم معسكرنا هنا .. »

وكانت له نظرية خاصة به هى أنه ما من معسكر كامل إلا لو أحيط بفرجة خالية من الأشجار .. ويجب أن يحيط بهذه الفرجة سياج .. فيما بعد تذكرت أنها قرأت هذه الكلمات فى رواية (كونغو) لـ (مايكل كرايتون Chriton) ..

هكذا راح الرجال يقتطعون الأشجار .. ثم بدءوا فى نصب الخيام ..

قال لها (ستانلى) وهو يتفقد المشهد :

- « هذه الفرجة الخالية من الأشجار تمنع الأعداء بشرًا كانوا أم حيوانات من اقتحام معسكرنا .. لو كانت

الأشجار تحيط بنا لتهاوى هؤلاء كالحجارة علينا من فوق غصون الشجر »

وبدأ باختيار بعض الرجال ممن يثق فيهم ، فأعطاهم البنادق ووزعهم فى أماكن عدة لحراسة المعسكر .. ثم دعا إلى إشعال النار ..

- « إنها الخامسة .. هذا موعد الشاى »

قالت له فى حذر :

- « هل تجد هذا أنسب مكان لشرب الشاى ؟ »

- « أنا نصف بريطانى .. ولا شىء سوى الموت يمكن أن يمنع البريطانى من شرب شاى الساعة الخامسة .. »

ثم جلس على صخرة هناك ودس غليونه فى فمه وراح يدخن ..

كان منظر محارب (الكيكويو) شبه العارى الذى يحمل صينية عليها أقداح الشاى وقوالب السكر غريبًا بحق ..

قالت له وهى تنفخ فى الشاى ليبرد قليلاً :

- « هل تعتقد أنك متجه لمنابع النيل حقًا ؟ »

نفث سحابة دخان كثيفة وقال :

- « على الأقل أنا متجه للمكان الذى كان يجب أن ينبع منه .. على أننى أعتقد أن النيل بدأ بداية حقيقية قبل هذا .. على الأرجح أبعد نقطة منه هى نهر (روفيرونزا Ruvyironza) فى بورندى .. لكن ماذا يحدث بعد هذا ؟ هذا هو اللغز الحقيقى .. »

- « هل تعتقد أنك أول من سيكشف السر ؟ »

- « لا أعرف .. هناك أوغاد متحمسون كثيرون منهم (بيكر) و(شفاينفورث) و(سبيك) .. كلهم يحاول الظفر بهذا المجد .. دعك من أننى متأكد من أن (ليفنجستون) اقترب جدًا .. اقترب أكثر من اللازم ، لهذا أعتبره بالنسبة لى ذا نفع مزدوج .. من يجد (ليفنجستون) يجد منابع النيل .. »

هكذا مر العصر فى مناقشات حتى غربت الشمس ..

جاء الوطنيون بغوريلا ليشووها .. إن الغوريلات هنا أكثر وفرًا من الغزلان .. فى هذا الزمن السعيد كانت

الغوريلا تحت كل حجر .. كما ترى هى أكلة شهية تسيل اللعاب فعلاً ، ولم تتمالك (عبير) شعورها بأن هؤلاء أكلة لحوم بشر يلتفون حول إنسان ..

اقتطع (ستانلى) قطعة كبيرة من فخذ الغوريلا وقدمها لها ، فهوت رأسها شاكرة :

- « لقد تناولت نسناسًا على الغداء فلم أعد جائعة .. »

- « خسارة .. لا شىء يفوق مذاق الغوريلا .. »

وأنشب أنيابه فى قطعة اللحم ففضلت ألا تنظر ..

انتهى العشاء فراح الرجال يرقصون حول النار .. بصراحة لم يكن مزاجهم رائقًا ، ولم يكونوا راغبين فى ذلك ، لكنهم وطنيون وهذه حملة .. إذن لابد من أن يغنوا ويرقصوا حول النار ليلاً ..

- « عمت مساء .. »

قالتها وهى تتجه إلى خيمتها ..

وهناك فى الظلام راحت تنظر إلى اللهب المنعكس على قماش الخيمة وتفكر ..

أين كان المصريون فى هذا الزمن ؟ كان الأجدر بهم أن يخوضوا هذه المغامرة لاكتشاف النهر الوحيد فى بلادهم .. لكنهم كانوا غافلين غائبين عن الوعى تحت حكم مولانا السلطان العثمانى ، وتركوا كنوز بلادهم ليكتشفها لهم الغربيون .. دعك من تلك الطبيعة المعادية للسفر لدى المصريين .. الالتصاق بالأرض .. هذا هو ما أخرهم أكثر من اللازم .. فى الوقت ذاته كان البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والألمان يجوبون القارة فلا يتركون حجرًا على حجر .. يصادقون القبائل أو يحاربونها .. يتعلمون لغاتها .. يرسمون الخرائط .. يكافحون الأمراض .. أراض بكر تكتشف للمرة الأولى وأعلام أوروبية ترفع فى كل صوب .. هؤلاء القوم جديرون بالإعجاب بحق ..

و ....

فيم كانت تفكر ؟ لقد جاء ساحر النوم ليبعثر رماله فى عينيها ..

* * *

صحت من النوم شاعرة بذلك الشىء .

ذلك الشىء الذى يجعل النيام يفتحون عيونهم ..

سمعت الزنير وشمت الأنفاس الكريهة .. لا جدال .. هناك كائن من تلك اللواحم يزج برأسه فى خيمتها الآن .. ماذا تفعل ؟ لو صرخت فلربما تصرف بجنون ولو ثبتت وهذا عسير جدًا فلربما يستمر فى مهمته .. مهمته التى تعنى التهامها طبعًا ..

الرأس الكبير يبدو فى صورة (سلويت) على خلفية السماء الزرقاء .. لبوءة أو نمر على الأرجح .. لحظة تلتمع فيها النجوم على العينين الناريتين .. عينين تقتلان من دون أن تلمساك ..

لم يعد مفر من الصراخ .. إنها لا تتحمل المزيد ..

فتحت فمها وأطلقت صرخة جمعت ببراعة كل صرخات النساء فى أرجاء الأرض .. لابد أنها مزقت أعصاب هذا الوحش وأعصاب كل الرجال الغافين من حولها ..

هكذا أطلق الوحش ساقيه للريح ، بينما تعالت أصوات الرجال .. وسمعت صوت طلقات ..

أخيرًا استطاعت أن تقف على ساقيها فخرجت زحفًا من الخيمة لتجد لبوءة تركض فى الأفق ، بينما يطاردها نحو مائة إفريقى يلوح برمحه ..

(ستانلى) يقف جوارها ، ويقوم بإعداد بندقيته العتيقة ثم يحكم التصويب على الوحش .. بوم ! لم يصب .. هذه بنادق عتيقة جدًا لا تطلق إلا طلقة واحدة قبل أن يعاد تعبئتها ..

قال لها وهو يراقب المطاردة :

- « هل أنت بخير ؟ »

هزت رأسها أن نعم .. فقال فى حزم :

- « هناك من سيحاسب على ترك هذه اللبؤة تتسلل هنا .. إن من يترك لبؤة تتسلل يترك قطيع أفيال .. »

هزت رأسها .. يجب أن يُعاقب هؤلاء الرجال .. ربما بعض الجلد بالسوط أو قطع الرقبة .. الآن لم تعد مهتمة بالعنصرية بقدر اهتمامها بحقيقة أن أسدًا كان على بعد متر منها ..

الكارثة الأكبر كانت أن الرجال عادوا خالبى الوفاض .. لم يقبضوا على اللبوءة برغم رماحهم وأجسادهم القوية وشراستهم ..

هكذا انطلق (ستانلى) يشتمهم بالسواحلية .. ربما ببعض البانتويد .. وأنهى حديثه بشتائم أمريكية جدًا لا يمكن ذكرها ..

ثم أنه دس فى يدها شيئًا ثقيلاً وقال لها :

ـ « احتفظى به .. »

كان هذا مسدسًا من الطراز العتيق عندما كان المسدس يدعى غدارة .. أداة زخرفية جميلة جدًا لاتصدق أنها يمكن أن تقتل .. قالت له فى رعب :

ـ « لا أستطيع التصويب .. ولم أجرب قط أن .. »

قال فى خبث :

ـ « فقط أطلقيه قبل فوات الأوان .. سوف يعرف هو كيف يتصرف .. حواسك ستعرف كيف تتصرف .. فقط لا تغمضى عينك لتنحرف الطلقة مترين إلى اليسار .. »

وغادر المكان ، فدست المسدس فى صدرها .. وقررت أنها لن تستعمله أبدًا ..

وفى الصباح أعلن أنهم سيمضون هنا ثلاثة أيام للراحة ثم يعودون للحركة ..

* * *

توقع الناس شرًا عندما طالت تلاوة القرآن الكريم فى الإذاعة والتليفزيون .. ثم ظهر (أنور السادات) على شاشات التليفزيون يعلن الخبر بصوت مبحوح : مات (عبد الناصر) ..

فى ذلك الوقت (أوائل السبعينات) لم يكن أكثر الناس يملكون التليفزيون ، لذا كانوا يشاهدونه فى الحدائق العامة التى تضع فيها وزارة الثقافة جهاز تلفزيون على قاعدة عالية ..

وهكذا شهقت مصر كلها شهقة واحدة .. لا أحد يصدق .. النسر الأسطورى الجميل القادم من أساطير التاريخ كى ينقذ البلاد قد مات ..

هناك من هاموا به حبًا .. هناك من كرهوه بشدة إما لبعض التجاوزات التى شهدها عهده .. أو بسبب هزيمة ٦٧ ،

لكن كانت هناك حالة نفسية معقدة كالتى سادت الاتحاد السوفييتى عندما مات (ستالين) .. إنه الأب الذى مات .. الأب الذى حسبه الجميع أقوى من الموت نفسه فعرفوا أن الله وحده حى لا يموت .. حتى المعتقلين فى سجونه بكوه .. وهى حالة أجاد الكاتب الروسى (إيليا أهرنبورج) وصفها فى قصته (ذوبان الثلوج) ..

هكذا خرج الناس مذعورين يجرون فى الشوارع المظلمة ، وهم يرددون : يا ناصر يا عود الفل .. من بعدك حنشوف الذل ..

لا يدرون متى ولا كيف وجدوا أنهم يحتشدون على ضفة النيل .. هذه ملاحظة ذكية أبداها الأستاذ (هيكل) ولا يعرف لها تفسيرًا .. فى كل محنة تحل بالمصريين تجدهم لا شعوريًا يتجهون إلى النيل !

* * *

أخيرًا تصل الحملة إلى أهم منطقة فى الرحلة ..

فى البداية لم تتبين ما تراه جيدًا .. بدا لها كأن سهلاً كاملاً لونه أزرق ..

ثم أدركت أنها ترى بحيرة .. بحيرة هائلة الحجم .. المشهد أسطورى وهى تراه من عل ، بينما الرجال الذين تفرقوا من حولهم يتحدثون بلغتهم بسرعة ويشيرون لبعض فى حماس .. هذا الوحش الطبيعى الراقد أمامهم لم يقلق أحد راحته منذ خلقه الله ..

لكن الحيوانات أكثر حكمة ، وقد كانت تعرف هذا المكان جيدًا .. ملحمة كاملة يسيل لها لعاب أى مصور فى (ناشونال جيوجرافيكس) وهو يرى أفراس النهر تستحم وتتبادل الغزل ثقيل الظل ، بينما التماسيح تتظاهر بأنها ليست خطرة إلى هذا الحد ، والغزلان الهيابة الوجلة تحاول الظفر ببعض الماء فيحوم حولها طائر (الفتان) ثم يركض ليخبر التمساح ..

تمساح يثب من الماء بسرعة البرق ليقبض على خطم ظبى ويجره معه ، بينما يحدث الأخير قدرًا من الفوضى والرذاذ يجعلانك عاجزًا عن فهم ما يحدث .. وتتصايح القردة فى مكان ما .. وتحلق الطيور ..

وتنظر (عبير) إلى (ستانلى) فيبادلها النظر .. الغباء والحيرة فى عينيه تقولان بلسان فصيح إنه لم ير هذا المكان قط ولم يعرفه على أية خارطة ..

ـ « مذهل !! »

قالها وهو يرتجف ..

ـ « رائع ! »

قالها وصدره يعلو ويهبط ..

ومد يده ليخرج غليونه .. وضعه فى فمه مقلوبًا لأسفل وراح يحاول إشعاله فى هذا الوضع فكان ما ظفر به أن احرق طرف لحيته .. لكنها لم تصرخ ولم تضحك ..

بالفعل هذا مشهد يثير الذهول ويبعث القشعريرة ..

بحيرة لم يرها مخلوق قبلك ولم ترسم على أية خارطة من قبل .. بحيرة كاملة .. ليست بركة .. ليست بقعة ماء صنعتها أم (بلبل) عندما أفرغت دلو الغسيل القذر أمام بيتك .. بل هى بحيرة كما خلقها الله .. بحيرة لم تروض ولم يُحطم أنفها وشموخها البرى العجيب ..

سمعت أحد الأدلة يتكلم بلغته وإن بدا أنه يقول معلومات بالغة الأهمية ، لكن (ستانلى) لم يبد متحمسًا .. مالت عليه تسأله عن الموضوع ، فقال :

ـ « يقول إن العرب يعرفون هذه البحيرة .. كانوا يسمونها (أوكيروى) .. هذا هراء .. »

لكنها كانت تعرف أن هذه هى الحقيقة على الأرجح .. لقد جاب العرب إفريقيا وعرفوا كل ركن فيها وهذا فى عصور ازدهارهم طبعًا ، قبل أن يقلبنا داء الجلوس فى البيوت ننعى حظنا واضطهاد الأمم لنا .. من الغريب أن التقدم يقترن بالترحال وحب المغامرة .. لقد كان (فاسكو دا جاما) يبحث عن طريق للوصول إلى الهند عندما قابل بحارًا عربيًا متواضعًا اسمه (أحمد بن ماجد) .. هنا أصيب القبطان البرتغالى بالرعب عندما عرف أن هذه أمور بديهية بالنسبة للعرب ، وأنهم كانوا يقطعون الطريق إلى الهند بالسهولة التى تذهب بها أنت لمتجر عم (دسوقى) البقال ..

متى ضاع منا الطريق ؟ متى ؟

أخرج (ستانلى) بعض أجهزته وجلس على العشب الكثيف المحيط بالبحيرة وراح يحدد الإحداثيات ، ثم غلى بعض الماء ووضع فيه (الترمومتر) .. وهى الطريقة التى كانوا يحددون بها ارتفاعهم عن سطح

البحر .. حكى (مارك توين Twain) الكاتب الأمريكى الساخرُ عن أنه فى إحدى رحلاته نسى إن كان عليه غلى الترمومتر أم البارومتر ، وفى النهاية غلى الأول .. فى النهاية عجز عن تحديد الارتفاع ، لكن المسافرين معه أحبوا مذاق حساء البارومتر كثيرًا حتى صاروا يطالبون به يوميًا !

قال لها بعد ما غلى الترمومتر :

- « هذه البحيرة عالية جدًا .. إن هذا مهم لأن معناه أن الماء يخرج منها ليبدأ رحلة النيل .. »

ثم وقف وبلهجة مسرحية قال :

- « سأطلق على هذه البحيرة اسم ملكة إنجلترا حفظها الله .. (فكتوريا) .. ستكون هذه بحيرة (فكتوريا) من الآن فصاعدًا .. »

وقفت (عبير) ترمق المشهد شاعرة بالفخر وبعض الحسد .. هذا من حقه طبعًا .. ولو اكتشفها عربى الآن لأطلق عليها (بحيرة الإدريسى) مثلاً ..

- « فكتوريا نيانزا !! Victoria Nyanza »

كذا تصايح رجال القبائل وقد سمعوا الاسم ..

البحيرة العملاقة التى تقع فى (أوغنده) و(كينيا) و(تنزانيا) .. المنبع الرئيس للنيل .. وفى الحرب العالمية الأولى سوف تكون ضفافها مسرحًا للقتال بين البريطانيين والألمان ..

لكن القضية أعقد من هذا .. ما زالت هذه هى البداية ..

* * *

٤ـ هل أنت (ليفنجستون) ؟

« إمتى الزمان يسمح يا جميل وأقعد معاك على شط النيل » .

عرض عليها (عادل) ما توقعته وألح فى الطلب .. وكانت تعرف أنه مهذب يخشاها أكثر مما تخشاه ..

وكانت تستريح إليه .. هكذا وجدت أنها تمشى معه على كورنيشِ النيل فى وقت العصر .. قال لها وهو يرتجف انفعالاً :

ـ « أنا .. أنا سعيد .. سعيد بحق .. »

وأدركت أن الانفعال يوشك على خنقه .. رائحة الذرة المشوية الزكية .. اتجه إلى البائع وابتاع كوزين ثم عاد لها مظفرًا ..

بعد قليل رأى بائع الترمس يقف وهو يصب بعض الماء من دلو متسخ على بضاعته فركض ليبتاع لها بعضه .. قالت فى حذر وخجل :

ـ « ألا تخاف التيفود ؟ إن أمى تقول .. »

نظر لها البائع فى سخرية من طراز (هأو) ، ثم أخرج نصف ليمونة وعصرها على القرطاس الذى تمسك به .. وقال فى شىء من الفتور :

ـ « هذا يكسر السم .. »

الترمس والفول المقيلى وحمص الشام .. أشياء لها مذاق خاص فى هذه اللحظات ..

جوار البائع أريكة حجرية .. يجلس (عادل) ويشير لها كى تجلس بجواره .. ثم تلقائيًا يوليان وجهيهما شطر النهر الرمادى وظهريهما للعالم الصاخب .. المراكب تشق طريقها وسط الماء وثمة سفينة نهرية صغيرة تتجه للقناطر يقف على ظهرها شباب يصفق ويرقص ..

هنا يمر بائع السميط فيبتاع منه الفتى اثنتين .. صاحت محتجة :

ـ « هل أنت جائع لهذا الحد ؟ »

ثم أدركت أنه يحاول التغلب على خجله وارتباكه بأن يشترى أى شىء فى أية لحظة .. على كل حال هذه طريقة رشوة معروفة للتخلص من البائع السمج الذى لن يتركهما أبدًا .. كلهم كذلك ..

يكسر (عادل) قطعة من السميط ويقرب منها ورقة الملح كى تغمس قطعتها ويقول :

ـ « أنا . أنا سعيد .. »

ومن المذياع العتيق المربوط بألف خيط الذى يعلقه بائع الترمس خرج صوت (عبد الوهاب) يترنم :

ـ « النيل نجاشى .. حليوه أسمر ..

عجب ف لونه دهب ومرمر ..

أرغوله فى إيده يسبح لسيده ..

حياة بلادنا .. يا رب زيده ! »

★ ★ ★

تمضى الأيام ولا شىء يحدث ..

فقط يتحرك (ستانلى) ومن معه حول محيط بحيرة (فكتوريا) وهو يرسمها بدقة بالغة . لاحظ انها بحيرة عملاقة تقع فى ثلاث دول : (أوغنده) و(كينيا) و(تنزانيا) .. لذا لم تكن العملية بهذه البساطة ..

صحيح أن التماسيح ظفرت بعدد من الرجال ، لكن (كل شىء هادئ فى الجبهة الغربية) كما تعلم .. ما دام (ستانلى) ومادامت (عبير) حيين فكل شىء هادئ ..

قال لها مفكرًا :

ـ « الماء يغادر هذه البحيرة فى مكان ما .. ولكن أين وكيف ؟ »

قالت فى بساطة :

ـ « هناك نهير فى مكان ما .. هذا واضح .. لقد انتهت القصة .. »

لكن الاكتشافات لا تنتهى بهذا الشكل ..

لابد من أن يجد السبيل الذى يغادر به الماء البحيرة ..

كان قد بدأ يرتجف وارتفعت حرارته .. سألته والعرق يغمر ثيابه حتى كأنه سقط فى البحيرة :

ـ « ماذا دهاك ؟ »

ـ « إنها الملـ .. ملـ .. ملـ .... ملاريا .. هـ .. هذا واضح . ح ..ح .. »

ـ « إذن لماذا لا تتناول بعض الأقراص المعالجة ؟ »

ـ « هذا سهل .. لأنها لم تكتشف بعد .. »

خطر لها أنه لو هلك لصارت فى مأزق .. عليها وحدها أن تقود ألفى رجل من القبائل لا تعرف كلمة واحدة من لغتهم . أما المأزق الأسوأ فهو أن تصاب بالملاريا بدورها ..

كان راقدًا فى ظل شجرة يرتجف .. يمارس أطوار الملاريا المعروفة بانتظام تام : يسخن ويرتجف .. يعرق .. ينهض شاعرًا بالتحسن .. هكذا فى دورة لا تنتهى .. وراح الوطنيون يصبون فى حلقه سوائل لا تعرف ما هى لكنها لا تفيد على كل حال .

كان هذا عندما جاء أحدهم يركض ، وركع جوار الفراش وراح يحكى قصة مثيرة :

ـ « (جومبا) أوجاجا جوهو مومبانا سو أكيكى »

بدت الدهشة على وجه (ستانلى) فنهض على الفور .. وعاد يسأل :

ـ « سو أكيكى ؟ »

فأكد الزنجى كلامه :

ـ « سو أكيكى .. أؤكد لك »

على الفور عادت الحياة إلى المستكشف البريطانى فنهض وارتدى ثيابه لأنه كان نائمًا شبه عار بسبب الحمى .. وصاح فى الرجال من حوله :

ـ « سو أكيكى !! »

هنا دبت الحماسة فى الجميع وراحوا يجمعون سلاحهم وحاجياتهم ..

سألته (عبير) :

ـ « هل ترى أن حالتك تسمح بالذهاب الآن ؟ حتى لو كان (سو أكيكى) ؟ »

قال وهو يضع بندقيته على كتفه :

ـ « الأخبار الطيبة تشفينى كأفضل الأدوية .. (سو أكيكى) وتريدين منى أن انتظر ؟ »

قالت فى غيظ :

ـ « هل لى أن افهم الموضوع ؟ أشعر اننى الحمقاء الوحيدة هنا »

ـ « د. (ليفنجستون) قريب .. إنه فى قرية اسمها (أوجيجى Ujiji) على ضفاف بحيرة (تنجانيقا) ! »

ـ « لكنى لم أسمع كلمة (ليفنجستون) فى كلمة واحدة مما قيل .. »

لم يرد إنما صاح فى الرجال كى يلحقوا به .. وهكذا تحرك الموكب ..

فكرت (عبير) وهى تلحق بهم أن مهمتها انتهت عند هذا الحد .. لقد أرسلت للبحث عن (ليفنجستون) وقد وجدته .. الآن يمكنها أن تعود ..

قالت له هذا ، فقال :

ـ « من حقك أن تعودى .. لكنى مستمر فى البحث عن منابع النيل سواء بك أو بدونك .. »

وأخرج قلمًا وراح يدون أشياء فى مفكرة صغيرة يحملها فسألته :

ـ « ماذا تكتب بالضبط ؟ »

قال دون أن ينظر لها :

ـ « أدون أجزاء من كتابى (كيف وجدت ليفنجستون عبر القارة المظلمة ؟) .. إنه سيكون كتابًا عظيمًا .. »

فى غيظ قالت :

ـ « ألا تلاحظ شيئًا ؟ أنت لم تجد (ليفنجستون) بعد .. من الممكن أن يموت الآن أو ينقض عليك خرتيت يمزقك إربًا .. »

فى مصر نعتبر هذا نوعًا من (المقاطعة) مما يعنى أنها الطريقة المثلى كى تفشل المهمة .. لكن الوغد كان واثقًا من نفسه .. واثقًا من (ليفنجستون) .. واثقًا من الخراتيت وذباب (تسى تسى) .. واثقًا من عمره وشرايينه التاجية ..

وهكذا تحرك الموكب .. الأفارقة يغنون بصوت عال فيرد المتخلفون منهم .. سألت (ستانلى) الخبير بهذه اللغات عما يقولون ، فقال :

ـ « يقولون : سوف نجد هذا الأحمق البريطانى من ثم نقبض أجرنا ونتخلص من هذين المخبولين .. إن الغناء يشجع على العمل كما ترين .. »

ومضت المسيرة وسط تلك الأغانى الغامضة .. متجهة إلى بحيرة (تنجانيقا) ..

★ ★ ★

كان (ستانلى) مريضًا جدًّا عندما لاحت القرية من بعيد .. لقد ظهرت قروح عديدة على وجهه وسقط جزء من أنفه كما أنه كان محمومًا فسألته فى قلق :

- « هل هى الملاريا من جديد ؟ »

- « لا .. إنه (الياوز Yaws) .. هذا مرض غير معتاد فى إفريقيا .. ربما الجذام كذلك لكنى لست متأكدًا .. على كل حال أنا بخير »

وفى حماس واصل السير متقدمًا الرجال ..

كانت بحيرة (تنجانيقا) تلوح من بعيد عندما راح أهالى القرية يلتفون حول القادمين .. إن ألفى رجل رقم كبير ، وقد خيل للقوم ان هذه حرب قادمة ، لكنهم فهموا أن هؤلاء جميعًا جاءوا من أجل الأخ (ليفنجستون) الذى يؤوونه فى قريتهم منذ عام .. حتى صاروا يتبركون به أو يعتبرونه عبيط القرية ، بالمنطق الذى يوجد فيه فى كل قرية عندنا شيخ (عطوة) ..

مشى (ستانلى) فى ثقة بين الأكواخ .. وأمامه مشى ذلك الإفريقى الذى أخبره بأن (سو أكيكى) .. أخيرًا دنت (عبير) لترى رجلاً أوروبيًا أقرب إلى الأشباح يرقد فى كوخ قذر ، وقد صارت ضلوعه بارزة بشكل يغرى أى طالب طب ..

عينان غائرتان تنظران بلا تركيز إلى القادمين وفم يرتجف .. رائحة تصيبك بالغثيان .. لكن لا تنكر أنه حى ..

قال (ستانلى) العبارة الخالدة التى دخلت التاريخ باعتبارها رمزًا للبرود الإنجليزى :

- « د. (ليفنجستون) كما لى أن أفترض ؟ »

قال الرجل فى الكوخ بوهن وبلهجة أسكتلندية لا شك فيها :

- « تشرفنا يا سيدى .. »

حرارة مشاعر ترسل الدمع إلى مقلتيك ! وهكذا تم التعارف بشكل بارد راق متحذلق ، كأنهما يلتقيان فى أحد أندية (لندن) .. لا شىء يوحى بأن أوروبا كلها تبحث عن هذا المريض الراقد فى الفراش ، ولا أن هذا يعد أهم اكتشافات القرن ..

خارج الكوخ والشمس تكوى الأرض لتجعلها بلا تجاعيد .. مستوية تمامًا ، قالت (عبير) فى لهفة :

ـ « إنه هو .. لكنه مريض جدًا .. »

قال (ستانلى) :

ـ « لا بد أن حياته هنا لم تكن آية فى النظافة . لكنه حى على الأقل لو كان لى أن أقول هذا .. »

ـ « إذن سوف نعيده إلى الوطن ؟ »

ـ « أعتقد هذا .. سوف يحمله الحمالون إلى الساحل الشرقى ثم إلى بريطانيا .. »

ثم فرك عينه بقوة فسألته :

ـ « هل هى الملاريا ؟ »

راح يفرك حبتى عينيه كأنه يبغى أن يسحقهما .. وقال :

ـ « بل هى دودة (لوا لوا) .. إنها تحب أن تتنزه تحت الملتحمة مما يسبب حكاكًا قويًا .. »

قالت له فى ملل :

ـ « هل لديك خطط أخرى بالإضافة إلى أن تتحول إلى مرجع حى لطب المناطق الحارة ؟ »

ـ « لا شىء .. سوف أواصل استكشاف بحيرة (فكتوريا) .. »

ـ « وأنا لن أعود !! »

لم يكن هذا صوت (عبير) إلا لو كانت قد تحولت إلى رجل .. رجل اسكتلندى ..

نظرا إلى الخلف ليريا (ليفنجستون) واقفًا .. كان يتوكأ على عصا .. ويجر نفسه جرًا لكن عينيه كانت تلمعان ببريق مخيف ..

وأردف الرجل :

ـ « إننى قطعت طريقًا طويلاً .. لقد غيرت كل الخرائط الخاصة بإفريقيا .. ولسوف أستمر .. سوف أدفن فى آخر بقعة بلغتها خطاى فى إفريقيا .. »

قال (ستانلى) بتهذيب :

ـ « سيدى .. لتكن روحك رياضية .. لقد انتهى السباق بالنسبة لك .. أنت تجر ساقيك بكثير من العسر .. »

ـ « يمكن أن يحملونى .. هذا شىء أنا قادر عليه .. »

ثم لمعت عيناه أكثر .. الشىء الوحيد اللامع فيه كأنهما جمرتان باقيتان فى كومة من الرماد .. وأردف :

ـ « أنا اكتشفت حدود بحيرة (تنجانيقا) .. سوف تراها معى .. »

راحت (عبير) ترمق الرجلين .. كلاهما أقرب إلى الخبال ومريض جدًا .. لكن التصميم يجعلهما يشفيان بشكل مؤقت ويتماديان إلى آخر مدى ..

قال (ستانلى) وهو يمد يده إلى (ليفنجستون) :

ـ « ليكن يا سيدى .. سأقبل عرضك .. لكن يمكننا أولاً أن نقضى أمسية طيبة .. إن معى أوراق لعب كاملة وأنا أجيد لعب البريدج .. »

ـ « سيكون هذا شرفًا لى يا سيدى .. »

وهكذا اجتمع الرجلان فى المساء .. وحول النار المشتعلة ووجبة شهية من التماسيح راحا يلعبان

الورق .. بينما (عبير) لا تكف عن تأمل المستكشف الشهير .. (ليفنجستون) مهتم جدًا بمعرفة آخر ما نشرته صحف لندن وآخر الفضائح .. (إليصابات) قد هربت مع سكرتيرها الخاص .. يا للفضيحة ! (مكجريجور) يحب وصيفة زوجته .. يا للكارثة ! لم يعد هناك سادة مهذبون فى لندن .. ثم الكلمة الأشهر التى يقولها البريطانيون فى كل مكان وزمان :

ـ « البلد ذاهبة إلى الكلاب ! »

وتنظر (عبير) إلى (ليفنجستون) ممزق الثياب بارز العظام الذى أتلف أكل السحالى صحته، وتسمعه يتكلم عن السادة المهذبين فتوشك على أن تقول له : إنت فى إيه والا إيه ؟

لاحظت أن (ستانلى) لم يتكلم كثيرًا عن بحيرة (فكتوريا) و(ليفنجستون) لم يذكرها برغم أنه رآها حتمًا .. كلا الرجلين يخفى ما يعرفه عن صاحبه .. هذا واضح ..

وفى الأيام التالية راح الرجلان يرسمان حدود بحيرة (تنجانيقا) ..

كان هذا جهدًا شاقًا مع الحر والعرق والجهد العضلى ، خاصة و(ليفنجستون) عبارة عن شبح يبدو كالبشر .. لو صافحته لسقط أرضًا .. لو سعلت جواره لأصيب بالدرن ..

هكذا جاءت اللحظة المحتومة التى تأخرت بعض الوقت ..

لقد سقط على الأرض تحت شجرة .. وراح يرتجف ويرتجف فخلع (ستانلى) قبعته وكف عن التدخين على سبيل الاحترام ..

قال (ليفنجستون) بصوت كالفحيح :

ـ « أعتقد أن جولتى الاستكشافية انتهت هنا أيها الزميل .. »

قال (ستانلى) :

ـ « أعتقد هذا يا صديقى .. »

ـ « أرجو أن تتأكد من إلغاء اشتراكى فى جريدة (جارديان) وأن تخبرهم بذلك فى النادى .. »

ـ « سأرى أن ذلك تم يا صديقى .. »

ابتسم (ليفنجستون) وقد شعر بأنه قام بكل ما يجب على المواطن البريطانى أن يقوم به لحظة موته ، ثم تذكر شيئًا فقال :

ـ « حفظ الله الملكة .. »

وأغمض عينيه للأبد ..

كادت (عبير) تبكى لكن (ستانلى) أوقفها فى حزم ، وصاح فى أحد الحمالين بالسواحلية فانتزع هذا سكينًا عملاقًا من حزامه وانقض على جثة (ليفنجستون) ..

ـ « ماذا يفعل هذا المخبـ ... ؟ »

وقبل أن تكمل حرف (الواو) كان الحمال يقف حاملاً القلب الذى ما زال ينبض .. فقال (ستانلى) فى تأثر :

ـ « سندفنه تحت الشجرة التى مات عندها !! »

ـ « ألا تريد أن تطبخ كبده على سبيل التكريم ؟؟؟ »

هكذا دفنوا القلب وحده .. ووقف (ستانلى) يتظاهر بالتأثر مطرق الرأس لمدة ٣٦ ثانية كاملة ، ثم اعتمر قبعته وصاح فى الرجال .. سألته (عبير) التى لا تصدق ما يحدث :

ـ « ماذا يجرى هنا ؟ »

ـ « أمرتهم بحمل الجسد ليدفن فى (زنزبار) .. هذا واجبنا نحوه ! »

كانت تصفعه .. جسد مشوه فى صدره فجوة عملاقة .. هل هذا هو الوفاء وإكرام الميت على الطريقة البريطانية ؟ لكن (ستانلى) كان قد نسى كل شىء عن (ليفنجستون) .. فقط أضاف بعض ملحوظات لمفكرته وقال لها فى مرح :

ـ « لقد انتهى كتابى .. يمكننى أن أنطلق كما يحلو لى .. »

ـ « تنطلق ؟ أين ؟ »

ـ « إلى بحيرة (فكتوريا) .. يجب أن أعرف من أين يخرج النيل منها .. »

ـ « وأنا ؟ »

ـ « أنت حرة .. تعودين لتكتبى مقالك أو تصحبينى لما هو أهم من (ليفنجستون) .. منابع النيل ! »

★ ★ ★

٥ ـ وداعًا (ستانلى)

كان رجال (ستانلى) يتناقصون بسرعة مرعبة ، الأمر الذى ذكرها بـ (شوطة الدجاج) فى المزرعة التى جرب خالها حظه فيها .. وهى اختراع عبقرى جعله يخسر ثلاثة آلاف جنيه فى شهر ..

كل أنواع الأوبئة دبت فى الرجال ، دعك من هجمات (الماساى) من وقت لآخر .. عندما يهجم (الماساى) لا تعرف ما يحدث .. فجأة ترى عددًا من الأسود تنقض عليك راكضة من وراء الأشجار .. أسود تمشى على قائمتين ولها لبدات ثائرة وتلوح بالرماح .. وسرعان ما يسقط عشرة رجال على الأقل بينما يصيح كبير المحاربين :

ـ « واراى !! »

ثم يعودون خببًا إلى ما وراء الأشجار .. كل حياة هؤلاء القوم جرى وقفز .. الآن اضرب هذه الهجمة فى مرتين يوميًا لمدة شهرين تجد أن هناك نزفًا مروعًا فى الموارد البشرية لدى (ستانلى) ..

أما (ستانلى) نفسه فقد تورمت قدماه حتى صارتا كجذع الشجرة .. ويبدو أن بوله صار أبيض اللون كالحليب حسب كلامه .. سألته فى قلق :

ـ « هل هى الملاريا ؟ »

ـ « بل هو داء الفيل .. إن البعوض هنا شرس جدًا .. »

لكن عزيمته لم تفتر .. راح يتتبع مسار بحيرة فكتوريا بدقة .. تلك البحيرة التى بدا لـ (عبير) أنها المحيط ذاته وأنها لا تنتهى أبدًا ..

إلى أن جاء اليوم الذى توقف فيه أمام نهر تجرى مياهه بغزارة ، وقال لها :

ـ « هذا هو النهر الذى يغذى البحيرة .. سأطلق عليه اسم (كاجيرا Kagera) .. »

ـ « هذا جميل .. لكن لماذا (كاجيرا) ؟ »

ـ « ولماذا ليس (كاجيرا) ؟ أعطينى سببًا واحدًا يمنع ذلك .. »

لكنها كانت عرفت سبب أنه أطلق على النهر (كاجيرا) .. السبب أن نهر (كاجيرا) هو الذى يغذى البحيرة ولا سبيل لتغيير هذه الحقيقة ..

ثم توقف (ستانلى) ، وقال لها :

ـ « الآن نفترق .. »

ـ « يا سلام ؟ »

قال بلهجة عملية :

ـ « لقد وجدت البحيرة وهذا كاف ورسمتها بدقة .. لكنى لن أضيع باقى حياتى هنا .. »

ـ « لكنك قلت إنك ستضيع حياتك هنا »

ـ « لم أكن أفهم نفسى بدقة .. هذه مهمة تحتاج إلى صبر ووقت طويل ، وأنا نافد الصبر مولع بالحركة .. لابد من مشاكل فى مكان ما ولابد من قتال .. هذه الحياة لا تناسبنى .. أنا فرس جامح بينما هذه المهمة تحتاج لحمار .. »

ثم مد يده ملوحًا بورقة فى يده ، وقال :

- « هذه برقية وصلتنى أمس من الوطن .. إن هذه البرقيات تصل بسرعة تدير الرءوس .. عام ونصف هى فترة تفوق الخيال .. إن العلم لن يتوقف عند حد .. »

- « وما محتواها ؟ أنك لست حمارًا ؟ »

قال وهو يعيد قراءة نص البرقية :

- « قوات المهدى تحاصر (محمد أمين) باشا .. قف .. توجه إلى السودان المصرى .. قف .. خذه معك إلى مصر قبل أن يقتلوه .. قف .. »

هذه ثورة المهدى الشهيرة إذن .. إنها أيام ملتهبة لو صدقنا كتاب التاريخ فى المدرسة الثانوية ..

كادت تنسى حقيقة أن (ستانلى) فى النهاية مجرد مستعمر بريطانى .. واحد ممن كانوا يجوبون شوارع القاهرة سكارى فيخنقهم رجال المقاومة ..

إذن الأخ (ستانلى) سيترك مهمته الكشفية ليذهب للسودان ليقمع الثورة وينقذ (محمد أمين) باشا ..

قالت فى سخرية :

- « سنة ونصف لوصول البرقية .. لابد أن ورثته قد ماتوا بالشيخوخة .. »

- « لا تنسى صعوبة توصيل الأخبار لمن هو مثلى تائه فى أحراش إفريقيا .. إن العنوان الذى أرسلت له البرقية هو السير (هنرى ستانلى مورتون) فى مكان ما حول فكتوريا نيانزا !! إن موظف البريد بارع حقا .. دعك من أن التماسيح التهمت ستة قبله .. إنه السابع ! »

كان يتكلم وهو يشمر السروال عن كاحله ، ثم راح يحك جلده حتى ظهر ذيل طويل أبيض يشق طريقه جوار الكاحل بالضبط .. استغرقت (عبير) بعض الوقت كى تفهم أن هذا جزء من دودة يبرز متراقصًا من تحت اللحم كأنه وريد من أوردة الساق ..

- « ما هذا بالضبط ؟ »

قال فى لا مبالاة :

- « هذه (دودة المدينة) .. إنها تثبت رأسها فى الحوض بينما جسمها كله تحت الجلد فلا يبرز منها إلا مؤخرتها عند الكاحل .. هذه نتيجة شرب ماء الآبار غير المغلى فى منطقة استوائية كهذه .. »

قالت لنفسها إن الرجل صار كنزًا حقيقيًا .. المفترض أن يحنطوه فى إنجلترا لتتم دراسة طب المناطق الحارة عليه .. قالت له لما وجدته غير مكترث كالعادة :

ـ « وماذا عنى أنا ؟ »

قال فى برود :

ـ « تعودين للوطن كما قلت لك أو تواصلين البحث عن منابع النيل .. »

ـ « يا سلام ! وأقود المائتى رجل هؤلاء ؟ »

كان الألفا رجل قد صاروا مائتين .. هذا طبيعى مع كل الحر والملاريا والماساى والتماسيح والأسود ..

قال لها باسمًا :

ـ « لو اتجهت غربًا قليلاً لوجدت من يواصل معك الرحلة .. لا تنسى أنهم كالذباب الآن .. »

ـ « من هم ؟ »

صمت ولم يعلق ..

* * *

تكررت اللقاءات مع (عادل) ..

(كوثر) و(عادل) .. (عادل) و(كوثر) .. النيل فقط يعرف .. النيل وبائع الترمس ..

النيل يعرف أدق أسرارى .. لا غرابة فى هذا فمنه جئت أنا .. هل هذا اللون الأسمر صدفة ؟ إنه الطمى قد ترسب فى كل خلية من خلاياى ..

المزيد من الترمس الذى عصر عليه الليمون .. و(عادل) يقول لها :

ـ « سوف أنهى دراستى وأتقدم لك .. »

ـ « ماذا ستقول لأبى ؟ »

ـ « سأقول إن لى مستقبلاً باهرًا .. سأقول إننى سأضعك فى عينى »

ـ « وتقول له إنك مفلس .. »

كانت تعرف أباها .. الموظف فى المطاحن الذى كافح كفاح الشهداء حتى يصل إلى درجة وظيفية تسمح بإطعام أطفاله .. بالتأكيد هو يمقت شبابه . بالتأكيد لا يريد من

يذكره به .. بالتأكيد لا يريد شيئًا من هذا لابنته .. (كوثر) سمراء جميلة وبالتأكيد يمكنها أن تجد فرصة أفضل ..

(عادل) يمد يده فى جيبه ثم يخرج شيئين ..

- « ابتعتهما أمس .. »

هما دبلتان رخيصتا الثمن .. على الأرجح لا يتجاوز ثمن الواحدة جنيهًا .. يمد يده مناشدًا فتمد إصبعها ليولج الدبلة فيه .. هنا تتساءل فى رعب وقد تذكرت :

- « سوف يرونها ! »

- « انزعيها على باب البيت .. لكن لا تقابليني إلا وهى فى يدك .. »

ويمد إصبعه مناشدًا بدوره فتولج فيه الدبلة ..

خطبة غريبة من نوعها .. لكن النيل يرحب بها ويزغرد ..

النيل يجرى متظاهرًا بالسرور ، لكنه حكيم مجرب يعرف أكثر .. إنه قلق عليهما ويعرف جيدًا ما عليهما أن يمرا به .. لقد عاش هذا الموقف مليون مرة من

قبل .. غريران لا يعرفان شيئًا ولا يفهمان قوانين المجتمع ، لكن دعهما يتعلما بالطريقة الصعبة .. من يدرى ؟ لربما ينجحان فيما فشل فيه كل من سبقوهما ؟

ينظر (عادل) لها وتضحك عيناه .. بائع الترمس يتظاهر بأنه لم ير شيئًا لكنه يرفع من صوت المذياع أكثر ليدوى صوت (عبد الوهاب) من جديد .. هل هناك من غنى للنيل أكثر من (عبد الوهاب) ؟

- « هل تذكرين بشط النيل مجلسنا ؟ »

* * *

كان الفراق أليمًا بحق ودمعت عيناها كثيرًا .. لقد قال لها (ستانلى) فى برود :

- « أراك فيما بعد »

ثم اصطحب معه عشرة حمالين وتوارى فى الأحراش ..

سوف يذهب إلى السودان .. لكنه أولاً سيقابل الملك الأسطورى الطاغية (موتيسا) فى (أوغنده) ، ثم يذهب إلى السودان لينفذ تلك المهمة الشبيهة بفيلم (إنقاذ المجند رايان) ، وعلى طريقة الفيلم الشهير لن

يقبل (محمد أمين) الفرار إلى مصر ويصر على البقـاء لمواجهة مصيره، وهو ما سيثير غيـظ (ستانلى) العملى جدًا .. إذن لماذا عطلت اكتشافاتى ومن أجل من ؟ هكذا يعود (ستانلى) إلى بريطانيا وينشر كتابه عن (كيف وجدت ليفنجستون عبر القارة المظلمة ؟) .. ثم ينال رتبة (فارس) .. ثم يعود إلى إفريقيا لتنقيح ما عرفه عن بحيرة (فكتوريا) .. لكن هذه قصة أخرى ..

الآن (عبير) وحدها مع الرجال .. وهى مهمة عسيرة بحق حتى أنها تمنت أن يهاجمهم الماساى بكثافة أكبر .. لو صارت مسئولة عن عشرين رجلا لكان هذا أفضل ..

إلا أن هناك رجلاً مهذبًا يجيد الإنجليزية نوعًا واسمه (مامولداى) .. لابد من واحد يصدر التعليمات للرجل ويخلص لها حتى الموت .. ويقول لها (ميث) لأنه يخرج لسانه عند نطق السين كعادة أكثر الأفارقة .. هذا الرجل سيكون ذراعها اليمنى فى هذه الرحلة ..

الآن وقد صار لها حليف قررت أن تتجه غربًا كما نصحها (ستانلى) ..

وقد وجدت نفسها تتبع ذات أساليبه فى بناء المعسكرات والتعامل مع الوطنيين، وإن لم تملك أعصابه القوية وساديته .. لهذا كانت أكثر رفقًا ..

ومن جديد تشق الأحراش وخلفها حشد الرجال ..

* * *

٦ ـ مرحبًا (سبيك)

فجأة توقف (عادل) عن الكلام ..

نظرت له فى حيرة فرأته ينظر إلى الوراء مثبتًا نظره بطريقة أقلقتها .. تتبعت عينيه لترى أسوأ مشهد رأته فى حياتها ..

إن أخاها يقف هناك مع صديق له .. على وجه الصديق تعبير يقول : ألم أقل لك ؟؟ والأخ ينظر لها نظرة كفيلة بحرقها لو أنها كانت كومة فحم ..

وشاية نجحت .. وكارثة فى الطريق ..

اتجه (عادل) فى خطوات ثابتة إلى أخيها ، وقال له فى تؤدة :

ـ « (هشام) .. أليس كذلك ؟؟ هذا اسمك .. سأشرح لك كل شىء .. »

كان يكبر الفتى سنًا وكان أطول منه بكثير لذا بدا (هشام) هو الطرف الأضعف فى المشاجرة .. لكن الفتى تجاهل (عادل) تمامًا ، واتجه نحو أخته وجرها بغلظة من يدها :

ـ « تعالى يا ست هانم .. سوف يتصرف أبى معك !! »

عاد (عادل) يكرر ، وهو يضم أنامله فى إيماءة شهيرة معناها : اصبر لتفهم ..

ـ « ولكن دعنى أشرح لك .. »

لكن الفتى لم يصغ لأحد .. فقط جر الفتاة ، ولم ينتظر ليسمع صديقه .. تذكرتْ المشهد النهائى الرهيب لرواية (بداية ونهاية) لـ (نجيب محفوظ) .. الضابط يأخذ أخته من قسم الشرطة .. ويقف معها مطلين على النيل .. لكن الأمر ليس بهذا السوء هنا ..

نظرت لـ (عادل) ، وهى تبتعد فرأته صورة للحيرة والعجز .. ماذا بوسعه أن يفعل ؟

وغمغم بائع الترمس ، وهو يصب المزيد من الماء على بضاعته :

ـ « هذا يحدث دائمًا .. العشاق يحسبون أن جلوسهم ووجههم للماء كاف كى لا يعرفهم أحد .. لكن الأمور لا تسير بهذا الشكل دائمًا .. »

ومن جهاز المذياع يأتى صوت (عبد الوهاب) :

مســافر زاده الخيـــــال   والعشق والسحر والظلال

شابت على أرضه الليالى   وضيعت عمرها الجبال

* * *

المشى .. المشى .. المزيد من المشى ..

غناء الأفارقة يتعالى وأنفاسها تنقطع .. وفى الليالى المظلمة الباردة كانت تشعر بذلك الشعور الأنثوى الخالص .. لابد من رجل .. رجل تثق به ويحميها ويملأ الكون طولاً وعرضًا فتغمض عينيها مستريحة .. كانت الأغنية القديمة تقول : « الأمر يتطلب امرأة .. حبيبة كانت أو صديقة أو زوجة » .. هى الآن تردد نفس الأغنية لكن مع استبدال رجل بامرأة .. وهى لا تريد حبيبًا ولا زوجًا .. فقط تحتاج إلى دليل .. شخص يحمل عنها هذه المسئولية ..

لو هلك أحد الرجال الآن فهذه مسئوليتها .. ولو هلكت هى فتلك غلطتها ..

لهذا يمكننا فهم سرورها عندما فتحت عينيها فى الصباح لترى أمامها ذلك الرجل متين البنيان الذى

ذكرها بـ (ستانلى) .. فقط هو أشقر غير ملتح وله شارب بريطانى عملاق ذى طرفين مدببين يوشكان على إصابته بقرحة قرنية ..

كان يقف فى معسكرهم ورجالها يصوبون الرماح نحوه .. معه رجال وهم يفعلون الشىء ذاته ..

ساد الصمت المتوتر ، ثم سمعته يصدر الأوامر لرجاله كى يخفضوا رماحهم .. هذا هدأ الأجواء قليلاً ..

اتجه نحوها وانحنى راسمًا قوسًا بيده ثم قال :

ـ « أنا (سبيك) .. (جون هاننج سبيك John Hanning Speke) مستكشف بريطانى وفى خدمة صاحبة الجلالة وخدمتك .. »

انحنت فى رشاقة برغم ثيابها المتسخة وقالت :

ـ « (إلسترى بارتردج) .. صحفية بريطانية .. وكنت رفيقة سير (ستانلى) فى البحث عن د. (ليفنجستون) .. »

هز يده فى ازدراء وقال :

ـ « (ستانلى) .. إنه مغامر أفاق .. وأحسبه لم يقرأ كتابًا فى حياته .. أنا كنت مع (بيرتون Burton) .. واكتشفنا الصومال معًا .. »

(بيرتون) من الأسماء المحترمة جدًا فى عالم الكشوف .. وهو مستكشف مهم وعالم فى اللغات الشرقية ، وقد درس القرآن الكريم ، كما إنه ترجم الكثير من الأدب العربى والهندى للإنجليزية .. على أن اسمه يرد دومًا مقترنًا بكتاب (كاما سوترا Kama Sutra) الذى يعلم فنون الحب ..

لكن .. اكتشف الصومال ؟ عبارة تثير الغيظ بحق .. عندما بدأ استقلال الدول الإفريقية فى الستينات ، نهض رئيس أفريقى فى مؤتمر لعدم الانحياز وقال فى غيظ :

ـ « كلما قالوا إن فلانًا اكتشف كذا وكذا صعد الدم لرأسى .. (كينيا) و(أوغندة) موجودتان منذ خلقهما الله .. فهذا الرجل لم يكتشف شيئًا .. فقط هو وضع قبضته الاستعمارية على أرض أخرى .. »

المهم أن الأخ (سبيك) رحب بها ..

سألته عما يقوم به فقال :

ـ « يا له من سؤال ! أستكشف بحيرة (فكتوريا) طبعًا ! »

قالت فى حيرة :

ـ « يبدو لى أن كل الناس يستكشفون (فكتوريا) هذه .. ألم يكف ما قام به (ستانلى) ؟ »

قال ضاحكًا :

ـ « يبدو أنه لم يعرف كيف يخرج الماء منها .. فقط وصف كيف يدخلها الماء .. أنا وجدت الجواب على هذا السؤال .. »

وهكذا مشى الجميع عدة أيام على حافة البحيرة .. إلى أن وصلوا إلى مشهد مهيب بحق ..

معذرة .. لا تسمعنى ؟ سأرفع صوتى فى هذا الجزء بالذات ..

هناك من هذا المكان المرتفع ترى (عبير) أضخم شلالات رأتها فى حياتها .. الماء يغادر البحيرة ليهوى من عل .. هدير يصم الآذان وترتج له الأرض تحت قدميك .. الرذاذ يتطاير فى كل صوب حتى ليبلل ثيابهم برغم أنهم بعيدون جدًا عن مجرى الماء .. الأسماك تتطاير لارتفاع عشرة أمتار فى الهواء وتلتمع فى ضوء الشمس كأنها سيوف من الفضة ثم تهوى للماء ..

ملحمة مرعبة .. الطبيعة فى ذروة سطوتها قبل الترويض .. مشهد لم يره غربى منذ الخليقة .. وشعرت (عبير) بالشعيرات تنتصب على ساعديها ليصير جلدها جلد إوزة ..

قال لها (سبيك) :

ـ « .. .. »

ـ « ماذا ؟ لا أسمع حرفًا .. »

عاد يكرر بصوت أعلى :

ـ « آلالات .. إيبون .. فوز .. »

ـ « لا أسمع حرفًا .. »

هنا بدأ يصرخ :

ـ « شلالات (ريبون فولز) .. هذه الشلالات من اكتشافى أنا .. أطلقت عليها اسم (ريبون فولز Ripon Falls) .. هذا هو الجزء الذى لم يره (ستانلى) الأحمق .. »

تخيلت وجه (ستانلى) لو رأى هذا المشهد الأسطورى ..

عادت تصرخ وقد ابتل شعرها بالكامل كأنما كانت تسبح :

ـ « إلى أين يفضى هذا الشلال ؟ »

صرخ بأعلى صوته :

ـ « الأمر سهل .. فقط تعالى نمش قليلاً .. »

هكذا مضت المسيرة عدة أيام .. وخيل لـ (عبير) أنها لن تسمع أبدًا أى صوت بعد هدير الشلالات .. لقد انتهت طبلة أذنها تمامًا .. هناك شلال صغير فى كل أذن لا يكف عن الهدير ..

ومن بعيد رأت تلك البحيرة التى تحتشد حولها الغزلان .. ليست بحجم فكتوريا لكنها كبيرة بما يكفى .. إنها طفل شرعى لبحيرة (فكتوريا) .. والمعجزة الحقيقية هى أن ترى هذا الوحش العملاق الغاضب يحشر نفسه حشرًا فى مساقط مورشيسون ليدخل هذه البحيرة الضيقة الهادئة ويهبط ثلاثة سدود ، قبل أن يهمد قليلاً كأنه تعب من كل هذا الصراع والركض .. أما أهم شىء فى هذه البحيرة فهو أنها لا تتلقى الماء من فكتوريا فحسب بل من الثلوج التى تذوب فوق قمم جبال

(روينزورى) على الحدود بين الكونغو وأوغنده .. جبال القمر الأسطورية ..

قال (سبيك) فى فخر :

- « هذه البحيرة من اكتشافى ، وقد أطلقت عليها اسم (بحيرة ألبرت) .. إن النيل يغادر (فكتوريا) ليدخلها ، وسوف نطلق عليه هنا اسم (نيل فكتوريا) »

ملكة بريطانيا نائمة غافلة فى قصرها بينما رجالها الشجعان يجوبون إفريقيا يطلقون أسماء أسرتها على كل ما يجدون .. إن هذا يثير بعض الغيظ فى النفس .. كان يجب أن يطلق على البحيرة الأولى اسم (ستانلى) والثانية اسم (سبيك) ..

قالت له وهى تتأمل البجع الذى يسبح فى مياه البحيرة :

- « لكن هذا لم يحل المشكلة .. ماذا يحدث بعد هذا ؟ الماء يخرج من (فكتوريا) ليدخل (ألبرت) .. وماذا بعد هذا ؟ »

فكر بعض الحين ، ثم قال :

- « معك حق .. لم نبرهن على شىء مهم بعد .. ربما لو تتبعنا مسار البحيرة بضعة أيام .. »

هكذا بدأت مسيرة مرهقة .. سوف تظل (عبير) تذكر عن هذه القصة أنها مشت كما لم تمش فى حياتها .. فقط كان الماء دومًا إلى يسارها وهى تتحرك فى عكس اتجاه عقارب الساعة مع (سبيك) ورجاله ..

لم تكن هناك مشاكل إلا إصابته بالحمى الصفراء والملاريا والجذام وسرطان (كابوسى) .. هذا الرجل مناعته أفضل من (ستانلى) بكثير ..

هنا يغادر الماء بحيرة (ألبرت) بعد رحلة ثمانية كيلومترات ..يخرج منها عذبًا برغم أنها مالحة .. معجزة ربانية أخرى مثل التى نراها فى (رشيد) و(دمياط) ..

هناك ذلك النهر الذى يخرج من (ألبرت) .. نهر رفيع هادئ نوعًا عذب المياه ..

قال (سبيك) :

- « نهر (سيمليكى Semliki) .. هذا هو .. »

قالت فى حيرة :

ـ « هل يطلقون عليه كذلك ؟ »

ـ « لا .. أنا مخترع الاسم .. »

ـ « ولماذا هو بالذات ؟ »

ـ « لأنه لا يوجد اسم يصلح للتعبير عن نهر (سيمليكى) إلا نهر (سيمليكى) . »

إن القصة تزداد وضوحًا الآن .. هناك بحيرة ثالثة على الأرجح .. بحيرة فكتوريا تلعب الدور الرئيس لكن بحيرة (ألبرت) تساهم ..

فى هذه اللحظة رأت (عبير) مجموعة من السود قادمين .. توقعت المتاعب ، لكنها رأت أنهم يحيطون برجل أوروبى فارع الطول يشبه (ستانلى) نوعًا .. هو بريطانى كذلك ..

قال (سبيك) فى غيظ :

ـ « سير (بيكر) هنا ! »

دنا منهم السير (بيكر) .. سوف تعرف بعد قليل أن اسمه (صمويل وايت بيكر Samuel White Baker) ، وهو من الأسماء المهمة جدًّا فى قصة منابع النيل ..

قال (بيكر) وهو ينتزع قبعته :

ـ « مرحبًا يا مستر (سبيك) .. لم نرك منذ دهر ومنذ هزمتك فى لعبة (الكونكان) فى (ديفونشاير) .. »

كادت (عبير) تجن غيظًا .. هؤلاء القوم يعرفون بعضهم جميعًا ، ولا يجدون غرابة فى أن يلتقوا وسط إفريقيا .. كأنهم فى محطة (كنجز كروسينج) ..

واصل (بيكر) الكلام :

ـ « بحيرة (ألبرت) ملكى .. أنا اكتشفتها فلا تضيع وقتك .. وسوف يكتب اسمى مقترنًا بها فى المراجع .. »

أما كيف عرف أنها صارت بحيرة (ألبرت) فمعضلة اخرى من معضلات (فانتازيا) المعروفة .. كل شخص فى العالم صار يعرف فجأة أن اسمها (ألبرت) برغم أن (سبيك) أطلق الاسم أمامها منذ دقائق ..

قال (سبيك) فى ثقة :

ـ « أنت تقول هذا يا سيدى .. لكن دعنى أؤكد لك إننى مكتشف هذه البحيرة ، وإننى مستعد لألعب معك (الكونكان) هنا والآن وأسحقك »

اختلف الرجلان بعض الوقت ، ثم اتفقا على أن يؤجلا الخلافات إلى ما بعد العودة للوطن حيث يمكن للمحاكم أن تسوى الخلاف .. المهم الآن هو أن تتحد القوتان من أجل معرفة من أين يغادر الماء البحيرة .. لقد عرفنا أنه نهر (سيمليكى) لكن إلى أين يتجه (سيمليكى) ؟

* * *

٧ ـ عند السدود ..

أيها النيل يا حبيب الرياحين .. عيون الأزهار نسج عيونك
حسدتك الأنهار حين أتاها .. أن آمون من هواك وطينك
املأ الشاطئين حباً وشعرًا .. فجناح الهوى شراع سفينك
لثم الدهر راحتيك وغنى .. عبقرى الألحان تحت غصونك

(الأخطل الصغير)

* * *

سألت (عبير) (بيكر) وهما يمشيان وسط السافانا :

ـ « لا أريد أن أضايقك .. لكنى أعتقد أن (سبيك) هو فعلاً مكتشف (ألبرت) .. كما أعتقد أن (ستانلى) هو مكتشف فكتوريا .. »

قال بلا مبالاة ، وهو يقطع الأعشاب العالية بسيفه :

ـ « سوف تجدين الكثير من الخلط فى تاريخ هذه الكشوف .. بعض الكتب يصف (ستانلى) بأنه مكتشف فكتوريا والبعض يصف (سبيك) بأنه فعل الشىء

ذاته .. لا توجد حقائق واضحة فى هذا الدغل ومع بطء انتقال الأخبار .. »

عادت تسأله وهى تزيح الأعشاب التى يمكن أن يتوارى فيها خرتيت فلا تراه :

ـ « هل النيل الرهيب ينبع من هنا فحسب ؟ »

ـ « بل نصفه .. نحن نعرف كل شىء عن فرع النيل المدعو بالنيل الأزرق .. لقد وصفه المستكشف (جيمس بروث Broth) .. ووصف كيف أن ماءه ينحدر من صخور بركانية إلى بحيرة (تانا T'ana) فى غرب إثيوبيا ، لهذا يكتسب ماؤه خصوبة غير عادية عندما يرسب الغرين على ضفتيه .. لكن هذا لا يفسر كل شىء .. »

* * *

الآن أقدم لك بحيرة (إدوارد) ..

كما ترى هى فى حجم (ألبرت) تقريبًا وكالعادة اختاروا لها اسمًا من الأسرة المالكة البريطانية .. يقف المستكشفون منقطعى الأنفاس ينظرون إلى البحيرة

التى لم يرها غربى منذ الخليقة .. إنها تشبه البحيرات الباقية فيما عدا أنها مليئة بالتماسيح إلى حد غير مسبوق .. لو أنك ألقيت حجرًا لوجدت قضية مرفوعة ضدك من تمساح أحدثت له عاهة مستديمة ..

أفراس النهر غير عابئة بهم تنزلق إلى الماء فى كسل وهى تتساءل عن سر وجود هؤلاء المخابيل هنا .. هذا عالمها منذ جاءت للحياة فماذا يثير شغفهم لهذا الحد ؟ لو أنك وجدت وفدًا من السياح يتصايح فرحًا ويلتقطون الصور لشارعك ومدخل البناية التى تسكن فيها وبائع الفول الواقف عند المنعطف ، لظننت بعقلهم الظنون .. لأسباب كهذه كان النوبيون قديمًا يستعملون المومياوات الفرعونية لإشعال النار .. فهى أكثر وفرة وجفافًا وأرخص من الخشب !

قال (بيكر) وهو يشعل غليونه :

ـ « القصة واضحة .. النيل يأتى من هذه البحيرات الثلاث .. (فكتوريا) .. (ألبرت) .. (إدوارد) .. لكن بدايته الحقيقية هى نهر (كاجيرا) الذى يغذى فكتوريا .. من الممكن أن تعتبر بدايته نهر (كاجيرا) أو شلالات (ريبون) .. فقط الخيار الأخير يجعله أقصر .. »

قال (سبيك) وهو يحك رأسه مفكرًا :

ـ « لكنه هادئ جدًا .. النيل هادئ جدًا ولا يمكن فهم سبب فيضانه ولا القوة التى تدفعه للشمال .. »

ـ « هذا هو عملنا .. يجب أن نواصل الرحلة .. »

قالها وسقط على الأرض يرتجف بفعل الملاريا .. لقد صارت الملاريا عادة بذيئة لدى هؤلاء القوم ، والغريب أن (عبير) لم تصب بشىء مما جعلها تتوقع أن كارثة قادمة .. يبدو أنها ستصاب بكل شىء مرة واحدة ..

★ ★ ★

نحن الآن فى منطقة السدود ..

لم يعد هناك نيل على الإطلاق .. لقد تلاشى وسط مستنقعات مخيفة جديرة بأفلام الرعب ..

فى هذه المناطق ضل الجنود الرومان طريقهم وهلك منهم المئات .. ولا عجب .. لقد تلاشى مجرى النهر العظيم ليمتد على مساحة ستين ألف كيلومتر ..

هذا المشهد الرهيب هو الذى رآه الإنسان الأول الذى استقر فى وادى النيل .. الإنسان الذى صنع الحضارة الفرعونية فيما بعد ..

فيما بعد ظل البريطانيون يعملون ثلاثة أشهر بكل معداتهم الحديثة ، فلم يطهروا إلا خمسة أميال جعلوها شيئًا أقرب إلى النهر الذى يحترم نفسه .. من هنا يأتى السؤال : ما الذى فعله البشر قديمًا فى مصر بلا معدات ولا فئوس كى يجعلوا هذه المستنقعات نهرًا كالذى نراه اليوم ؟ كيف ؟ أى قدر من الجهد ؟ كم استغرقهم من وقت ؟

نظر (سبيك) إلى المشهد الكئيب الممتد بلا نهاية ، وقال للرجال :

ـ « لا جدوى من المزيد من التقدم هذا اليوم .. سوف نجد مكانًا مرتفعًا نوعًا ننصب فيه الخيام .. »

هكذا بدأ الرجال العمل .. وهى مهمة شاقة فعلاً لأن الأوحال زلقة .. دعك من أن الحيوانات هنا لم تعتد البشر .. لهذا هى فضولية وقحة فعلاً ..

وقد نظرت (عبير) لترى رجلين يدفعان تمساحًا للوراء بالمجداف ، فإذا بالتمساح يطبق فكيه عليه

ويجذبهما منه حتى اضطرا إلى التخلى عنـه .. ونظرت (عبير) إلى الجميع فوجدتهم مغطين بالأوحال ووجوههم كالقردة .. قالت لنفسها إنها لو كانت تبدو مثلهم فهى فى مشكلة ..

فى النهاية انتصبت الخيام .. وهتف (بيكر) وهو يرقب المستنقعات :

ـ « خذوا الحذر .. إن التماسيح ليست قريبة .. إنهـا بيننا !! »

الليل .. ومع الليل يبدو المشهد كأنك فى كوكب آخر أو فى فيلم خيال علمى يدور علـى كوكب (بلوتو) .. ظلام دامس والنجوم لا تبدو شيئًا .. صوت رهيب يتردد من بعيد فيرد صوت أكثر رهبة من مكان آخر .. لهذا تكـف عن النظر لما حولك وتثبت عينيك فى جذوة النـار التى أشعلوها بصعوبة والتى يشوى الرجال عليها لحم ظبى ..

وسألت (عبير) وهى ترتجف :

ـ « هل توجد هنا أسود ؟ »

قال (سبيك) وهو يحشو بندقيته العتيقة :

ـ « مستحيل ! إنها تخاف التماسيح كثيرًا !! »

وطائر ليلى شبيه بخليط من البجعة والبومة وراديـاتور السيارة والعفريت يرفرف بجناحيـه ، ثم يقف بقربهم ويرقبهم فى حدة .. توشك أن ترى نظرة الشر فى عينيه ..

ـ « هش !!! »

قالها (سبيك) وهو يطوح بغصن شجرة فى وجهـه ، لكنه لم يبد مقتنعًا .. فجأة مد منقاره والتقط قطعـة لحم كانت فى يد (عبير) ثم حلق مبتعدًا .. وهتفت (عبـير) فى غيظ :

ـ « يا لك من لص !! ! »

للأسف كان العشاء قد انتهى لذا مد (بيكر) يـده فى كيس معه وناولها بعض ثمار المانجو الفاسـدة .. على الأقل القردة تأكلها فلماذا لا تأكلها هى ؟

أخيرًا نـام الجميـع مـا عدا بعض الحـراس الأفارقـة يجلسون على محيط الدائرة يراقبـون المستنقعات بحثًـا عن التماسيح .. عندما تقرر التماسيح الهجوم سوف تكتفى بأن تمد خطمها الطويل لتلتقط أى واحد من علـى

هذه المائدة التى أرسلتها لها الأقدار .. الأرض مبتلة فيصعب عليك أن تجد وضعًا مريحًا ..

كانت (عبير) فى مشكلة .. إنه الأرق .. الأرق و ..

فى الواقع كانت الفاكهة فاسدة .. فاسدة اكثر من اللازم لو أردت رأيى ..

إن المغص يمزق أحشاءها ، وبسهولة تدرك أن كل ما كان صلبًا فى أمعائها قد صار سائلاً .. يجب أن تتصرف ..

تنظر إلى الحارس الأفريقى فتراه ينظر لها بدوره .. ليس المكان مناسبًا على الإطلاق .. هذه هى مشكلة الأنثى .. إنها تحتاج إلى أكبر قدر من الخصوصية حتى لو كانت ترافق مجموعة نساء مثلها ..

هكذا نهضت فى خفة .. إن المشى هنا صعب لكنها تذكر طريقًا معينًا مشوا فيه وهم قادمون .. ثمة أرض مرتفعة نوعًا .. سوف تقطع هذه الأمتار القليلة لتتوارى وراء جزيرة من ورد النيل وتفعل ما تريد ، ثم تعود .. لن يستغرق الأمر وقتًا .. ثم إن النار ستقودها ..

* * *

الأرض زلقة والظلام دامس ..

لكن هذا لم يمنعها من تحقيق ما أرادت ، ثم رتبت ثيابها ونهضت .. فى الحملات القادمة ستحرص على عدم التهام أية فاكهة حتى لو ماتت جوعًا .. كانت تحرص على عدم دخول الحمام فى أى مكان متى غادرت البيت ، وكانت تضع نفسها فى ظروف جفاف فى الرحلات الطويلة كى ..

هذه هى النار .. المهم ألا تنزلق قدمها ..

فجأة انطفأت الجذوة التى كانت تراها من بعيد !

الحارس الأحمق أطفأها أو انطفأت من نفسها ..

لا داعى للذعر .. سوف تعرف كيف تعود .. كان المعسكر من هذا الاتجاه .. هناك تلك الغيمة التى كانت فوقه .. وهناك نجمة فى قلب الغيمة بالضبط أو تبدو كذلك .. لكن هذا كان هراء .. الأمر يشبه جحا عندما استخدم سحابة فوق بيت علامة عليه .. طبعًا السحاب يتحرك والغمام يتحرك ..

هل هو كابوس ؟ نعم .. هو كذلك .. إنها تقف تحت غطاء النجوم وحدها والأوحال تصل إلى ركبتيها ،

والمستنقعات تمتد إلى ما لا نهاية يطفو فوقها ورد النيل .. تحاول أن تتذكر هل كان دربها من هنا أو هناك ..

تجرب هذا الاتجاه .. تجرب آخر .. عارفة أنها تزيد الأمر سوءًا .. لا توجد جدران ولا شوارع .. لا توجد شجرة تضع عليها علامة ..

صرخت بأعلى صوتها :

- « أنا هنااااااا ! »

ثم قررت ألا تصرخ ثانية لأن صدى الصوت مريع ..

من هنا ؟ أم من هنا ؟ راحت تركض وسط الماء .. لابد أن الجنود الرومان تخبطوا مثلها بذات الطريقة منذ قرون .. لابد أنهم سقطوا فى هذه البركة مثلها .. طش !!

لابد أنهم مشوا من هنا بصنادلهم الرومانية الثقيلة ودروعهم .. لابد أن الجندى (كاسيوس أرستوس) سقط هنا ونزع خوذته وقال إنه لا أمل ..

لابد أنهم داسوا على هذه الصخرة حاسبين أنها صخرة .. ولم يتصوروا أنها ..

تمساح !!!

سقطت وسط الماء بينما ذلك الشىء البشع يزحف نحوها .. إن النجوم هنا تعطى إضاءة لا بأس بها وإلا لماتت دون أن تعرف كيف ..

الغواصة الحية المريعة تتقدم نحوها ببطء .. إنه يملك كل الوقت فى العالم فلماذا يتعجل ؟

سوف تركله فى خطمه .. لكن لا .. لا ركلات .. سوف يلتقط قدمها بسهولة تامة ويجرها لأسفل .. هناك لن يلتهمها بل سيكتفى بإغراقها ثم يدفنها فى الطين بضعة أيام إلى أن تتعفن وتلين أنسجتها .. كل التماسيح لا تمضغ جيدًا ..

إنه يقترب .. صوته هو صوت الطبول فعلاً كما قرأت عن ذلك كثيرًا ..

هنا تذكرت أنها تحمل هدية من (ستانلى) .. المسدس أو الغدارة التى دستها فى صدرها .. ترى هل ابتلت ؟ ترى هل تصلح ؟

أخرجت السلاح وصوبته نحو الوحش القادم .. ثبتت يدها اليمنى باليسرى وصوبت نحو الفم .. لحسن الحظ أنها ترددت لأن الفم صار على بعد سنتيمترات منها .. هكذا أغمضت عينيها وضغطت الزناد الذى بدا كأنه لن ينزاح أبدًا ..

دوت الطلقة ..

فقط سقط التمساح فى الماء الذى خرج منه .. وسمعت جلبة .. ثم بدأ الماء يفور .. إنها خمس تماسيح جاءت تقدم التحية لأخيها الميت بأن تأكله ... الماء يفور والجثة تتقلب كأن لها حياتها الخاصة ..

هذه هى شريعة الغاب التى لا تعرف المجاملات .. الطبيعة عملية جدًا ..

هنا سمعت صياحًا .

رفعت رأسها فرأت بقعة من المشاعل تتحرك من بعيد ..

إنهم هم ! لقد سمعوا الطلقة .. لابد أن صوتها أعلى من الصراخ .. لقد أشعلوا المشاعل وخرجوا يبحثون عنها ..

صرخت بأعلى صوتها :

ـ « أنا هنا !! »

لكن الحمقى يواصلون مسيرتهم الغامضة فتعاود الصراخ :

ـ « أنا هنااااا ! »

ألا لعنة الله على الصمم والغباء أيهما أقرب للدقة !

فرصتها الأخيرة فى ألا تفقد حياتها وسط هذه المستنقعات تبتعد .. ثم تذكرت أن المسدس معها .. هل هذه الغدارات تحوى أكثر من طلقة ؟ لم لا تجرب ؟

هكذا رفعت المسدس وضغطت الزناد .. فارتجت منطقة السدود للصدى ..

وسمعت صراخ الرجال .. وبدأت مسيرة المشاعل تتحرك نحوها ..

ركضت نحوهم وهى تنزلق .. تقع .. تقف .. تبصق وحلاً .. لكنها لا تجرؤ على أن تبعد عينيها عنهم .. وفى لحظة وجدت نفسها ترتمى على صدر (سبيك) .. لم تكن تميل إليه لكنه فى هذه اللحظة بدا تجسيدًا لكلمة الحياة .. لا تصدق أن حظها أوفر من جنود القيصر لكن هذا حدث ..

راحت تنشج وتنشج وهم يحاولون تهدئة روعها ..

★ ★ ★

(كوثر) أيضًا راحت تنشج وتنشج بعد ما حدد أبوها إقامتها فى غرفتها .. بعد ثلاثة أيام سمح لها بالذهاب إلى المدرسة لكن برفقة أخيها .. وكان ينتظرها على الباب أما الدروس الخصوصية فألغيت ..

راحت تفكر فى (عادل) .. ماذا سيفعل ؟ كيف يتصرف ؟ لم لا تأتى لتنقذنى أيها الأحمق ؟

لكن (عادل) كان يجلس على ضفة النيل حيث اعتادا الجلوس .. يجلس جوار بائع الترمس ويسحب منه على الحساب حتى صار قولونه بالونًا يوشك على الانفجار ..

المشكلة أنه لا يعرف كيف يتصرف .. هو يهاب أباها .. أباها الذى قاسى أهوال الحياة إلى أن وصل لموطئ قدم يسمح له بألا ينزلق .. يسمح له بملء بطون أطفاله .. هذا الرجل لا يريد أن تتكرر ذات الخبرات القاسية مع ابنته .. (كوثر) سمراء جميلة ويمكنها أن تجد عريسًا ممتازًا يريحه ويريحها .. إنه يشمئز من نمط الشاب المكافح الذى يعتقد أن المستقبل مشرق لمجرد أنه هو ..

هذه مشكلة لكن المشكلة الأخطر هى أبوه نفسه .. لو كان أبوها شرسًا فإن أباه مفترس .. لو كان أبوها

ريحًا فإن أباه إعصار .. سوف يسخر منه الرجل ويسفه أحلامه .. سوف يوجه له لكمة قوية بين لوحى كتفه ويقول له : كفاية مسخرة ! إننى أشقى من أجل تعليمك وأنت متفرغ لهذه الألعاب الرقيعة ..

نعم .. هو لا يجد حلاً .. كل قوى الأرض ضده ، لهذا يأكل المزيد من الترمس كحل أخير ..

يقول البائع الذى صار صديقًا مخلصًا له :

ـ « كل قصص الحب تنتهى بهذا الشكل .. لهذا تظل عزيزة على النفوس .. »

ثم يرفع صوت المذياع أكثر ليدوى صوت (عبد الوهاب) :

ـ « إمتى الزمان يسمح يا جميل .. واقعد معاك على شط النيل ؟ »

يقول البائع ضاحكًا :

ـ « اسمع واتعظ .. هذا زمن غير زمنكم .. كانت أقصى أحلام سى عبده أن يجلس مع حبيبته على

النيل .. هذا هو الوصال كما تخيلوه .. أنت نلت الوصال بهذه الطريقة من زمن .. فماذا تبغى أكثر من هذا ؟ »

★ ★ ★

وأمام الواجهة الملأى بفساتين الصيف وأشياء الزينة .

كانت تتوقف عيناك على ثوب ملقى فى أحد الأركان الملعونة ..

وتشدين بكفيك ذراعى :

ما رأيك ؟

لا طعم له ..

ونجوب زحام الناس ..

ونجوب زحام الناس بخطوات مطعونة ..

... ...

وعلى كورنيش النيل الممتد ..

كنا نمشى ساعات لا نجهد .

وكثيرًا ما كنت تغنين قصيدتى الأولى ..

تلك الكلمات الخجلى عن عينيك وأشواقى وليالى السهد ..

فإذا جاء الليل رجعنا .. نقسم أنا أروع من تلك الدنيا والخد على الخد ..

... ...

ليلى ..

كم من صيف ولى ..

واليوم أعود لواجهة الأمس

فى جيبى ثمن الفستان ..

عيناى عليه ..

لكن ذراعى مرخاة ..

مرخاة جنبى فى يأس !![*]

★ ★ ★

(★) شاعر شاب نسيت اسمه للأسف ، لكن هذه القصيدة الرائعة كانت منشورة فى ملحق زهور الذى كان يصدر مع مجلة الهلال فى السبعينات. ولم أنس القصيدة برغم أننى كنت فى الصف الثالث الإعدادى !!

تمشى المجموعة وسط هذه المستنقعات الرهيبة .. الصمت .. لا صوت إلا صراخ رجل أو آخر ظفر به تمساح .. وقد ضايق هذا (سبيك) الذى تزعجه الضوضاء .. لماذا لا يتعلم الناس ألا يموتوا فى هدوء ورقى ؟

وفجأة بدأ الصمت يركض مذعورًا ..

هذا حقه .. إن الضوضاء شيطانية تخيف أشجع صمت فى العالم ..

كل هذا الصراخ والأصوات الرفيعة والخفيضة والعالية والحادة والمكتومة والموسيقية والمزعجة .. كلها فى مكان واحد ..

وتوقف الرحّالة وقد احتبست أنفاسهم ..

هل يوجد طائر فى العالم خارج هذه الجزيرة ؟

هناك مليون طائر على الأقل تبنى أعشاشها وتتشاجر وتتبادل الغزل .. بعض الطيور يرقص رقصات الغزل بينما بعضها يبدو أنه ممتنع عن التزاوج لأسباب صحية أو فلسفية .. أغرب أنواع الطيور التى لو رآها

الخواجة (داروين Darwin) لجن فرحًا بدلاً من رحلته المرهقة إلى (الجالاباجوس) ..

قال (بيكر) الذى تقطعت أنفاسه انبهارًا :

ـ « الطيور المحلية تتزاوج .. أما الطيور القادمة من أوروبا فتكتفى بالمبيت والأكل كأنها تعرف أنها لن تستقر هنا .. »

بجعة تحلق فى الهواء ثم تهبط لتلتقط سمكة عملاقة بدورها وترتفع ..

تذكرت (عبير) مشهدًا مماثلاً فى قصة (العالم المفقود) لـ (كونان دويل Doyle) ، لكن الجنة الموعودة كانت مليئة بطيور (تيروداكتيل Pterodactyl) المخيفة ، وكان على العالم الذى أراد دراستها عن كثب أن يحبس نفسه فى قفص ليقترب منها من دون أن تمزقه .. طبعًا لا بد أن يذكرك الأمر كذلك بفيلم (الطيور) لـ (هتشكوك) ..

سألت (بيكر) الذى كانت تشعر بأنه مريح نوعًا عن (سبيك) :

ـ « هل ترى أن نمشى من هنا ؟ »

هز رأسه أن لا ، وقال :

ـ « بالقطع لا .. سوف يبدو الأمر كأن السماء انطبقت على الأرض .. تخيلى مليونى طائر أصابه الهياج فى اللحظة بعينها . أرى أن علينا أن ندور حول هذه المنطقة »

وهكذا انتقلت الأوامر للرجال الباقين الذين صاروا ثلاثين تقريبًا .. سوف ندور حول جزيرة الطيور هذه فلا تضايقوها ..

إنهم يقتربون من الأراضى المأهولة .. لكن لغز النيل لم يتضح بعد ..

فجأة فطنت إلى أن (سبيك) لا يمشى معهم .. عادت إلى الوراء تبحث عنه فوجدته تحت شجرة والأفارقة يلتفون حوله ..

ـ « ماذا أصابك ؟ »

ـ « هى الملاريا .. لم أعد أتحمل المزيد .. »

دنا منه (بيكر) ووقف حائرًا لا يعرف ما يقول ، فقال (سبيك) بتلك الطريقة الساخرة المريرة التى يجيدها المحتضرون :

ـ « لا تقلق يا زميل .. سوف أشفى .. لكنى غير قادر على مواصلة هذه الرحلة .. يمكنك أن تستمر أنت وصحفيتك الحسناء .. »

هز (بيكر) رأسه ، وأخرج من حقيبته بعض التبغ والماء ، ووضعهما جوار (سبيك) .. فقال هذا الأخير :

ـ « لا تتعب نفسك .. هذه الألاعيب تمارس مع من يوشك على الموت ، لكنى أطمئنك : لن أموت .. سوف نلتقى فى إنجلترا ، ونخوض معركة كبرى لمعرفة من مكتشف بحيرتى (ألبرت) و(إدوارد) .. »

قال (بيكر) وهو يجذب (عبير) من يدها :

ـ « لا تتعب نفسك .. أنا أعرف اسم المكتشف منذ اللحظة الأولى .. وهو ليس أنت .. حفظ الله الملكة »

ـ « حفظ الله الملكة .. »

وهكذا واصلت المجموعة المسيرة من دون (سبيك) .. حقًا لقد احتاج هذا النهر المتعب إلى عدد كبير من الرجال كى يتتبعوا مساره المعقد ..

هم الآن يتحركون فى جنوب السودان .. تقريبًا فى جنوب السودان ..

٨ـ نهر الرعد ..

مسـافر زاده الخيـال والسحر والعطر والظلال

ظمآن والكأس فى يديه والحب والفن والجمـال

(محمود حسن إسماعيل)

* * *

صار لون الماء أبيض ..

لاحظت (عبير) هذا واندهشت له كثيرًا .. لكن يبدو أن (بيكر) كان يتوقع شيئًا كهذا إذ قال لها :

ـ « هنا صار اسم النيل (النيل الأبيض) لأنـه يتلقى مياه نهر (السباط) النـابع من بحيرة (رودلف) فى (كينيا) و(أثيوبيا) .. ماء نهر (السباط) أبيض .. »

راحت تتساءل فى سرها عن عدد الدول التى ينبع منها هذا النهر .. إنه شـديد التعقيد فعلا .. لغز عظيم منذ ولد فى عصر الميوسين ، أى منذ نحـو ١٤ مليون سنة .. عندما هطلت الأمطار بغزارة فوق أراض منحدرة فشكلت تلك الوديان .. ثم جفت الأمطار وصارت المنطقة

صحراء جرداء بدليل وجود عشرات الوديان الجافة فى الصحراء الشرقية مثل وديان : شعيت وخريط والعلاقى وقنا .

قال لها (بيكر) وهو يجفف عرقه :

ـ « نحن نقترب من الخرطـوم .. هنا يتم اللقاء الشهير بين النيل الأزرق والنيل الأبيض .. »

وتقف (عبير) لترى اللقاء الذى قرأت عنه فى كتب الجغرافيا .. الزواج المقدس بين النيلين ليصنعا ذلك النهر الذى نعرفه .. بعد هذه الرحلة الشاقة فى مجاهل إفريقيا يصير هناك نيل واحد .. وهو مصمم على التقدم نحو الشمال .. كأنه يعرف هدفه .. هدفه هو أن يستحم فى البحر المتوسط ..

سألت (بيكر) وهى ترمق المشهد الرهيب :

ـ « لكن أرى مـاءه منخفضًا وديعًا .. لا يبدو أنـه يستطيع أن يتحرك مترًا آخر .. إنـه مجرد خزان مياه هائل الحجم .. »

حك لحيته مفكرًا وقال :

ـ « بالفعل .. هناك حلقة مفقودة من اللغز .. لكنى سأعرفها .. »

وحك عينه فسألته :

ـ « هل هى (اللوا لوا) ؟

قال وهو يدفن وجهه فى منديل :

ـ « كلا .. بل هو عمى الأنهار .. لابد أنه أصابنى فى قلب إفريقيا .. »

ثم مد يده لينزع دودة برز ذيلها جوار كاحله وأمر الرجال بالتحرك ..

وهكذا يواصلون السير نحو الشمال .. الآن صارت الوجوه مألوفة واللغات مألوفة .. بالنسبة لها على الأقل .. عبارات عربية وضحكات عربية وعيون عربية وثياب عربية .. أذان من فوق المساجد البسيطة المبنية بالطين فى هذا العهد .. طعام قريب من طعامنا يختلف فى كل شىء عن الغوريلا المشوية التى كانت تأكلها حول بحيرة فكتوريا ..

لكنها مندهشة من النيل ..

إنه أقرب إلى بركة ضحلة مملة .. أتراها اختارت لمغامرتها موسمًا من مواسم الجفاف الشنيعة التى

عرفتها إفريقيا ، والتى كان تأثيرها فى مصر يصل لدرجة أن بغلة الوالى سرقت والتهمها اللص .. ثم شنق اللص فاختفت جثته ؟؟!

كانوا يمشون الآن فى واد جاف كوته الشمس حتى استوى تمامًا .. الأرض مشققة بشعة المنظر ، ولكن الشقوق لا تعيش فيها ثعابين لأنه لو وجد ثعبان هنا لشوى فى دقيقة ..

كانوا فى شهر يونيو .. يتقدمون بصعوبة نحو الشمال .. وحالة عامة من الإحباط فى النفوس .. مخيب للأمل حقًا هذا النيل الرخو المسالم ..

عندما جاء المساء وقف (بيكر) وثنى ظهره ووضع راحتيه على ركبتيه طلبًا للراحة وقال :

ـ « لم أعد أشعر بساقى .. أرى أن نمضى ليلتنا هنا .. »

ونصب الرجال الخيام فى مجرى النهر الجاف .. كانت (عبير) قد تعلمت من (ستانلى) أنه من الخطأ وضع الخيام فى مكان منخفض لكنها قدرت أن (بيكر) يعرف ما يفعله .. وجلست (عبير) ترمق النار شاردة الذهن .. قطعة لحم قدمت لها فالتهمتها دون أن تسأل

عن شىء .. على كل حال لقد انتهت مهمتها . عرفت من أين يأتى النيل وإلام يمضى .. لم تعد هناك إلا إضافات بسيطة ..

نامت على ظهرها وراحت ترمق النجوم .. نجوم الصيف ذى السماء الصافية .. هنا أيضًا ترى النجوم كما خلقها الله قبل أن يبنى الإنسان البنايات العالية ويلوث الهواء .. لو تخيلنا أن هذه النجمة أرسلت ضوءها منذ عصر الديناصورات واستغرق الضوء كل هذه المسافة ليصل إلينا فإن معنى هذا أننا ضئيلون جدًا .. مشاكلنا تافهة جدًا تدعو للسخرية .. لو عرفت أن النملة التى تزحف على أرض حجرتك تعانى مشاكل نفسية مع رؤسائها فى العمل وقد طلقها زوجها .. لو عرفت هذا فهل تهتم ؟ ألا يبدو لك الأمر مبتذلاً سخيفًا ؟

هكذا الإنسان المغرور وسط هذا الكون المرعب المهيب .. إنك لتشعر بنفسك تتضاءل لكن بشكل ما تشعر أنك أفضل حالاً ..

راحت فى النوم بضع دقائق (أم ساعات ؟) عندما شعرت بأن السماء ترعد ..

لا . ليس رعدًا ..

إن الأرض تهتز ..

شعر بها الحمالون فصرخوا .. وشعرت بها فنهضت .. زلزال هنا ؟ لم تسمع عن زلازل فى السودان .. لكن ما المانع ؟ إن ..

صرخ (بيكر) فى الرجال :

ـ « اجمعوا الخيام ! »

ثم رآها واقفة فصرخ :

ـ « هلمى يا حمقاء ! ماذا تنتظرين ؟ »

لم تدر ماذا يريد منها لكنها رأته يركض عبر مجرى النهر الجاف ويمد يده لها ليلقى بها على الجانب .. على الأرض المرتفعة ..

ونظرت (عبير) للوراء فلم تصدق ما تراه ..

هل هذا هو الليل الأسود يهجم عليهم ؟

لا .. إنه نهر .. نهر متوحش ينقض عليهم بسرعة البرق ليحتل هذا المجرى الجاف .. وصوته هو الرعد

ذاته .. إنه يجرف الخيام التى لم يجد الرجال الوقت لفكها .. وصرخ أحد الرجال ممن لم يجدوا الوقت الكافى للتسلق إذ جرفه الماء فى طريقه .. تصايح السود وحاولوا اللحاق به لكن قوة الطبيعة عاتية .. أضف لهذا الظلام الدامس ..

لقد كان هذا حلمًا أو كابوسًا .. النهر يهدر فى الظلام متوحشًا كاسرًا مكشرًا عن أنيابه صارخًا بأعلى صوته : أنا نهر عظيم ! ماذا كنتم تحسبون يا أطفال ؟

هذه من المشاهد التى لا تراها إلا لو كنت مع (بيكر) فى رحلته الأصلية أو ارتحلت إلى (فانتازيا) ..

نظرت فى الظلام لـ (بيكر) غير فاهمة فقال وصدره يعلو ويهبط :

ـ « (عطبرة) .. كان يجب أن أعرف هذا .. هذا النهر القادم من الحبشة .. فى هذه الأيام تهطل الأمطار فوق مرتفعات الحبشة فتدب الحياة فى عطبرة كأنه وحش نائم .. وهو ذا قد جاء ليبدأ فيضان النيل .. كان النيل مسالمًا إلى أن جاءه هذا النهر المشاغب المتوحش .. »

وفى الصباح وقفت (عبير) ترمق النهر فى رهبة ..

لون المياه أسود .. هذا تأثير الصخور البركانية فيه .. وهذا اللون الأسود يعنى كذلك الخصب والحياة .. (عطبرة) يعطى النيل خصوبته وتوحشه ..

وفى مصر يرى الفلاحون هذا اللون الأسود فى الماء فيدركون بفطرتهم أن الفيضان قريب ..

قال لها (بيكر) وهو يجمع حاجياته :

ـ « القصة قد اكتملت .. لكن أقترح أن نكمل الرحلة فى قارب لأن الفيضان سيجعل اجتياز الأرض صعبًا .. »

* * *

٩- يا طالع السعد

من أى عهد بالقرى تتدفقُ وبأى كف فى المدائن تغدقُ ؟
ومن السماء نزلت أو فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقرقُ ؟

(أحمد شوقى بك)

★ ★ ★

أصرت (شيماء) على التهام السميط فنظرت (كوثر) إلى زوجها (هانى) نظرة حازمة من تلك التى يفهمها الرجال على الفور ..

يداعب (هانى) شاربه الكث ويتجه إلى البائع طالبًا سميطتين .. لابد أن الطفلة أحبت هذه الحلقات الأوليمبية ..

كانت (كوثر) قد تزوجت فى السنة الثانية من الكلية ، ثم رزقت بـ (شيماء) بعد عام وبعدها جاءت (هالة)

والثالث ينام الآن تحت حجابها الحاجز .. هكذا لم تعد تذهب للكلية ولم تعرف مصيرها هناك .. صارت أمًا ..

هذا البائع يبدو مألوفًا .. لكن لا مشكلة .. كل بائعى السميط لهم ذات المنظر .. مد (هانى) يده فتناول بيضتين من أمام البائع وكسر كلاً منهما على جبينه وبدأ التقشير .. ناوله البائع كيس الملح فأفرغ بعضه فى كف (كوثر) الممدودة وغمس بيضته فيه .

فى الوقت ذاته أصر (سمير) على أن يأكل الترمس .. راح يولول ويصرخ فنظرت (سلوى) لـ (عادل) آمرة .. كان يشتهى الترمس منذ عاد من عمله كمحاسب فى (دبى) لذا وجد الفكرة لا بأس بها ..

نظر للنيل فرأى ذلك اللون الرمادى الذى يدل على قرب الفيضان .. صحيح أن السد العالى غير الصورة نوعًا لكن عينه الحساسة اعتادت هذا ..

اتجه للبائع وطلب منه بعض الترمس .. أخرج الرجل دلوًا مليئًا بماء قذر وسكبه على بضاعته .. اشمأز (عادل) ومد يده يتناول نصف ليمونة وعصرها فوق القرطاس .. نظر له البائع فى مزيج من سخرية وضيق ، وقال :

« لا تصدق هذا الكلام يا بك .. الترمس شفا وخمير .. فقط اقرأ ما كتب عنه فى تذكرة (داود) .. »

يقزقز الترمس وهو يختلس نظرة إلى الأسرة الواقفة جوار بائع السميط .. هذه المرأة .. لقد رآها من قبل ؟ أين ؟ إنها أيام الصبا تلك .. لابد أنه خرج معها أكثر من مرة ثم نسى كل شىء عنها .. وجهها لا بأس به لكنها حامل مما جعله متورمًا مضحكا .. دعك من أن قدميها فى الصندل متورمتان كأنهما خفا جمل ..

(كوثر) نظرت إلى الأسرة الواقفة هناك .. من هذا ؟ يبدو مألوفًا .. لكنها تستبعد أن تكون عرفته من قبل .. هو حليق الوجه وهى لا تطيق أى رجل بلا شارب كث مثل زوجها .. إن له كرشًا لا بأس به .. ثم إنه أصلع ..

النيل يجرى عارفًا كل شىء .. لذا يتظاهر بأنه لم يلحظ شيئًا .. فقط يبتسم بسخرية ..

الأسرتان تقفان على الكورنيش ترقبان النهر الرمادى ..

فقط هم متأكدون من شىء واحد : إن أحدهم لم ير الآخر من قبل قط ..

* * *

القارب يبحر فى مياه النيل ..

يتحدث الملاحون عن حرف S يرسمه النيل فى هذه المرحلة .. هناك ستة جنادل تجعل الملاحة صعبة ..

لم يكن خزان أسوان ولا السد العالى قد وجدا .. لذا أمكنها أن ترى النيل كما خلق بالضبط .. متمردًا سخيًا أحيانًا وبخيلاً أحيانًا ..

الفيضان يغمر الأرض فلا ترى نهاية ولا حافة للماء على الجانبين ..

(بيكر) يقضى الوقت فى كتابة خواطره ، وفى تدخين الغليون ، وفى التعذب بالملاريا والحمى الصفراء ، بينما صار المراكبى الذى يقود المركب رجلاً صعيديًا جدًا هو الريس (حمدين) .. أسمر اللون كالطمى له شارب عملاق أبيض وبنية قوية .. لقد انتهى كل الـ (مامولداى) والـ (أمجولو) والـ (أمادو) منذ زمن لأن رحلة اكتشاف منابع النيل لم تكن هينة على الإطلاق .. كانت قاسية .. وبرغم أن رحيلهم أثر فى نفسها ، لكنها كانت مسرورة لأن على المجداف أخيرًا رجالاً يمكن فهم ما يقولون .. وكانوا يغنون :

« ما تجربى يا مراكب هلى ..

الريح بتجرى وانا لسه محلَى »

وأحيانًا كانوا يغنون مع (عبد الوهاب) :

« هيلا هوب هيلا .. صلح قلوعك يا ريس »

(هيلا هوب) لفظة عربية فصحى فلا غرابة فى أن يستعملها (شوقى بك) ..

الريس (حمدين) يعد الشاى .. شاى الساعة الخامسة لـ (بيكر) .. طبعًا يضع فى كفه كميه وفيرة من الشاى ثم يلقيه فى البراد الأزرق المتسخ ، ويغلى الماء ثم يرفع البراد على ارتفاع مترين من الكوب على الأقل ، مصوبًا الشاى ببراعة فى الكوب كأنه يلعب لعبة النيشان ، وحتى لترتفع الرغوة كأنه عرقسوس .. ثم يقدم الكوب لـ (بيكر) .. طبعًا هذه الطقوس تبدو غريبة نوعًا بالنسبة لشاى الساعة الخامسة .. لكنه شاى وكفى ..

ويقدم (حمدين) كوبًا لـ (عبير) فتشمه .. يا للروعة ! إنها تسكر من دون خمر بهذه الرائحة .. الرائحة وحدها

تتسرب إلى أعصابها فتتفتح كالورود .. ثم ترشف رشفة تشعر بها تتسرب إلى مخها مباشرة .. لا عجب .. هذا شاى صعيدى يعده مراكبى على النيل ..

وعندما يأتى المساء كانت تنام على ظهرها كما اعتادت لترى صفحة النجوم .. الشاشة كاملة تغطى ٣٦٠ درجة .. (بلانتاريوم) ربانى يفوق أى واحد آخر صنعه الإنسان .. يمكنها أن تسمى كل نجمة باسمها ..

وكانت تنظر إلى بروفيل (بيكر) الجالس على حافة المركب كئيبًا مهمومًا ، وتفكر .. لو كان فارسًا وسيمًا لاكتملت شاعرية الموقف ..

إنها ترى النجم الأكبر .. الشعرى اليمانية التى ذكرت فى القرآن الكريم .. النجمة التى تعلم قدماء المصريين أنها تعنى الفيضان ..

كهنة آمون يحتشدون ناظرين للسماء .. ثم يعلنون أن الشعرى ظهرت .. يركض المنادون فى الشوارع صائحين :

« يا طالع السعد ! لقد ظهر النجم الأكبر .. »

كهنة آمون هم أول من لاحظ أن الوقت بين ظهور شعرى وأخرى هو ٣٦٥ يومًا .. لهذا فكروا فى تقسيم هذه الفترة إلى ١٢ جزءًا متساويًا .. هكذا ولد التقويم ..

« يا طالع السعد ! لقد ظهر النجم الأكبر .. »

الفلاح ينتظر حتى ترتوى الحقول بالغرين البركانى الذى سال من جبال القمر وجبال الحبشة خصيصًا من أجله .. سوف يستمر الفيضان مائة يوم يغطى الأرض ثم ينحسر الماء ..ويبقى الطين عالى الخصوبة الصالح للزراعة .. هنا يخرج الفلاح ليبذر حبوبه ويستعمل أساليب ما زالت قائمة حتى اليوم ..

هذا هو (حابى).. (حابى) العظيم .. صديق (سبك) التمساح و(أوزيريس) ..

ويقف الكهنة ينشدون :

« شكرًا لك أيها النيل الذى يخرج من الأرض ويأتى ليطعم مصر .. تلك المياه والرياض التى خلقها الله لتطعم كل القطعان ، والتى تروى أرض الصحراء البعيدة عن الماء؛ إنها نداه الذى يسقط من السماء .. سيد الأسماك التى تجعل الطيور المائية تذهب إلى

الجنوب .. وهو ما ينتج الشعير ويخلق القمح ، هكذا المعابد تحافظ على الاحتفالات »

مصر هبة النيل كما قال (هيرودوت) .. منه ولدت أول حكومة فى العالم .. له حفرت أول قنوات فى التاريخ .. حتى الكتابة على البردى .. من أين جاء البردى هذا الرمز الزخرفى الجميل ؟جاء من النيل ..

وفجأة شعرت (عبير) بانها ليست على المركب مع (بيكر) والريس (حمدين) ..

إنها على مركب أخرى عملاقة مذهبة .. مقدمتها على شكل زهرة اللوتس الساحرة .. كل ما فى عالم الفراعنة له طابع خاص فريد .. اللوتس .. البردى .. البروفيل .. الصقر ..

هناك صلوات فرعونية تتردد .. رجال ونساء يحيطون بها .. الحلى الثمينة توضع حول عنقها وحول معصميها .. إنهن يعطرنها .. يضعن لها المساحيق ..

كاهن آمون حليق الرأس الملتف فى جلد نمر يدنو منها ، ويقول :

- « أنت يا (ميرال) عروس النيل .. عروس (حابى) .. إنك إذ تمنحين نفسك له إنما تمنحين الحياة لمصر كلها .. »

إنها تذكر هذا الموضوع .. فتاة شابة عذراء يلقون بها للنيل كى يجود بفيضانه .. لو لم يفعلوا لجاء الجفاف .. هى عروس النيل ، وهم يوشكون على التضحية بها ليرضى (حابى) !

صاحت فى رعب :

- « لكنى أجيد السباحة ! »

وهذا كذب لكنها لم تجد حلاً آخر ..

لم يرد الكاهن لأنهم بالفعل كانوا يربطون ساقيها بالحبال .. ثم ربطوا معصميها إلى ظهرها .. وثبتوا ثقلاً إلى ساقيها .. هم عمليون ولا يضيعون الوقت ! حتى لو كانت (جونى ويسمولر) فسوف تهوى للقاع كحجر ..

صرخت فى رعب :

- « أنقذنى يا مرشد ! لم آت هنا كى أغرق !! »

النيل عميق رمادى اللون .. عميق .. قاس .. بارد ..

وهم يقودونها إلى حافة المركب .. تقف فوق منط يشبه ذلك الذى كان قراصنة الكاريبى يلقون بالأسرى من فوقه لأسماك القرش ..

المشكلة هى أنها لا تريد .. عروس النيل الأصلية كانت تفعل هذا فى حماس وحب .. لكنها تعرف أن هذا كلام فارغ وأن حياتها ستضيع هباء ..

فجأة سمعت من يصيح بهم :

- « لا تفعلوا ! »

تنظر للخلف فتكتمل الفانتازيا لأنها ترى فارسًا عربيًا قوى البنيان يحمل لفافتى ورق ..

إنه قادم فى مركب ليلحق بالمركب الذى تقف فيه .. ثم يقف على الحافة ليتلو على كهنة آمون ما جاء فى الرسالة الأولى :

- « هذا أمر جلبته لكم من (عمرو بن العاص) حاكم مصر .. يأمركم بالتوقف عن عادة إلقاء فتاة شابة فى النيل ، وقد أرسل لكم أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) بهذه الرسالة لتلقوها فى النيل بدلاً من العروس .. »

ثم فتح رسالة أخرى وتلا ما فيها :

ـ « هذه رسالة من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر .. أما بعد .. فإن كنت تجرى من لدن الله فنسأل الله أن يجريك .. وإن كنت تجرى من لدنك ، فلا تجر فلا حاجة لنا فيك »

هكذا توقف الفراعنة عن الطقس الذى كانوا يقومون به .. مد أحدهم يده يلتقط اللفافة ثم طوحها فى الماء .. اللفافة تغيب وسط تموجات تتسع وتتسع ..

تفتح (عبير) عينيها لتجد أنها ما زالت جالسة فى المركب الذى يقوده الريس (حمدين) ، و(بيكر) جالس يدخن فى الظلام ..

هل كانت تحلم ؟ بالتأكيد تحلم .. لكن (فانتازيا) ذاتها حلم ، فهل كان هذا واقعًا بمقاييس فانتازيا ؟

قال (بيكر) وهو ينفث سحابة عميقة :

ـ « لا يوجد دليل على أن الفراعنة كانوا يمارسون هذه العادة البربرية .. لو كانوا مارسوها حقًا لوجدت ذكرها فى كل مخطوطاتهم وبردياتهم ؛ لأنهم كانوا

مولعين بالثرثرة .. الواقع أنهم كانوا يلقون تمثالاً يمثل (حابى) .. وكانوا يلقون مخلفات ختان الفتيات .. الفتاة التى لم تكن تفعل هذا كانت تحكم على نفسها بالعنوسة للأبد .. وحتى لو كانت عادة حقيقية فهل تعتقدين أن المسيحية كانت ستتركها تُمارس ؟لاحظى ان المسيحية كانت ديانة المصريين لدى وصول (عمرو بن العاص) إلى مصر ، فلم يكن هناك من يعتقد بوجود (آمون) و(حابى) وقتها .. أعتقد أن القصة قد ضخمت .. وربما وصلت القصة المضخمة إلى (عمرو بن العاص) فأصدر أوامره بمنع هذه العادة الهمجية »

هل سمع أفكارها ؟ هل عاش معها الحلم ذاته ؟

لن تعرف أبدًا ..

* * *

لا تبخلوا بمائها على ظمى وأطعموا من خيرها كل فمِ

(أحمد رامى)

* * *

والمركب يواصل رحلته نحو الشمال ..

الآن ترى معالم تعرفها جيدًا ..

إنها تقترب من الدلتا .. كلمة دلتا دخلت كل لغات العالم للدلالة على هذا الحرف الإغريقى الذى يشبه مجرى النيل ..

الآن يمكنها أن تفهم التكوين المركزى الفريد لمصر .. التكوين الذى لمح له البعض فيما سبق لكن لم يناقشه أحد بالنضج الذى ناقشه به د.(جمال حمدان) .. إنها لم تقرأ كتاب (شخصية مصر) ، لكنها تعرف ما يتكلم عنه .. فى كلمات مختصرة نقول إنه فى المجتمعات التى تعتمد على الآبار أو الأمطار يتأخر ظهور الحكومة ويسهل الاستقلال على أفرادها .. لا أحد يستطيع السيطرة على المطر أو منعه عن أناس بعينهم ..

أما فى مصر فإن من يتحكم فى النهر يتحكم فى حياة كل من يعتمدون عليه .. يمكنه حبسه عن بعض الناس وبالتالى يهلكهم .. إذن الحكومة ذات الطابع النهرى أو كما يقول العالم الكبير المجتمع (الهيدروليكى) ، قوية جدًا .. وفى الوقت ذاته ضرورية جدًا لأنه لابد من

تنظيم علاقة الناس ببعضهم .. لولا الحكومة لحدثت مجازر بصدد تقسيم المياه ولسالت الدماء لتملأ نهر النيل ..

هناك مثلث خالد فى مصر هو :

الماء + الفلاح + الحكومة ..

لهذا يقول الحاكم للفلاحين : أعطونى أرضكم وجهدكم أعطكم مائى .. ومن هنا تولد بذرة الطغيان .. ومن هنا تأتى الطاعة العمياء للحكام .. هنا لا مجال للتمرد ولا لفرار الثوار .. يمكن فى مجتمع يعتمد على المطر أن يتمرد أفراده على الحاكم ، فهم لن يموتوا عطشًا .. أما هنا فلا ..

قال (نابليون) يومًا : « لو كان جيشى من المصريين لحكمت العالم .. ». ولم يكن هنا يتحدث عن شجاعة المصرى وتحمله فحسب ، بل كان يتحدث عن (جندى الأحلام) الذى يفعل كل ما يُطلب منه .

كانت هناك سمة أخرى لهذا المجتمع الهيدروليكى هى ظاهرة الانقلاب الاجتماعى .. فمع كل فيضان مدمر للنيل كانت الثروة يعاد توزيعها من جديد .. يصير الفقراء أغنياء والعكس ..

من الواضح كذلك أن من يتحكم فى أعلى النهر يسيطر على من فى أسفله ، لهذا كانت الحكومة فى جنوب مصر غالبًا .. إنها تسيطر على النيل منذ لحظة دخوله البلاد .. وهذا هو المقلق بصدد ماء النيل لأنه لا تأتى منه قطرة واحدة من داخل مصر .. إنه يأتى بالكامل من دول إفريقية عديدة ، فإذا تغلغلت إسرائيل فى هذه الدول فإن ...

* * *

١٠ ـ القاهرة ..

كام اشتغلت يا نيل فى نحت الصخور

مليون بؤونة وألف مليون هاتور

يا نيل أنا ابن حلال ومن خِلفتك

وليه صعيبة عليّة بس الأمور ؟!

(صلاح جاهين)

* * *

وفى الليل خرج رجال (برطملين) .. (الجبرتى) يدعوه هكذا ، والعامة يطلقون عليه (فرط الرمان) أما صارى عسكر فيطلق عليه (بارتلمى) .. الأرجح أن هذا أقرب الأسماء للدقة لأنه كان من أصل أرمنى ..

خرج رجال (برطملين) الوغد الذى عينه صارى عسكر (نابليون بونابرطه) ليصير شرطى عموم القاهرة . أى أنه كان مدير الأمن .. طبعًا كان هذا مجرد تعيين لص لحماية القاهرة من اللصوص ..

كلما قابل رجاله فى العتمة متسولاً أو عابر سبيل أو بائسًا اضطر لمغادرة داره قطعوا رقبته .. وكانوا يضعون الرءوس فى زكائب من أجل عمليات الإحصاء أما الأجساد فيلقونها فى النيل ..

كانت هذه فكرة (برطملين) عن إحكام القبضة الأمنية على القاهرة، وقد راح الجنود الفرنسيون يرقبون أساليبه فى مزيج من الإعجاب والذعر ..

وعندما أشرق الصبح على القاهرة أصابه الهلع أتكلم عن الصبح وكاد يفرغ معدته ..

ففوق مياه النيل السعيد كانت تسبح أربعة آلاف جثة مقطوعة الرأس .. أربعة آلاف شخص فى ليلة واحدة !

جرب النيل هذا مرارًا .. ومنذ أعوام جرب أن تلقى فيه نصف مليون جثة من (رواندا) .. لا شك فى أن أعصابه صارت قوية فعلاً .. ومعدته أقوى ..

* * *

فى رياض نضّر الله ثراها   وسقى من كرم النيل رباها

* * *

القاهرة أخيرًا ..

مدينة الألف مئذنة تتوهج فى ضوء الشمس، وترمق النيل الناعس، وهو يواصل رحلته الأبدية جوارها ..

قالت لـ (بيكر) :

- « هل تواصل الرحلة حتى فرعى (رشيد) و(دمياط) ؟ »

قال وهو يدق على أرض المركب الخشبية :

- « لا .. هذا الجزء معروف .. لقد استكملنا الخارطة الآن بعد ما كان نصفها السفلى مبتورًا .. والآن حان وقت الراحة بالنسبة لى .. لقد كانت رحلتى طويلة شاقة .. سوف أبحث عن أول باخرة عائدة إلى الوطن »

ثم قال بالعربية للريس (حمدين) الذى سمع الدقة :

- « هنا يا ريس .. »

هكذا صاح الملاح الصعيدى فى رجاله كى يرسوا على الشط، وبدأت حبال تشد وحبال تنزل ومرساة تلقى .. إلخ ..

وضعوا لوحًا من الخشب كى يتمكن وتتمكن (عبير) من النزول ..

بقدمين ذائبتين وقفت على الأرض الصلبة للمرة الأولى منذ أشهر ترمق القاهرة التى بدت كصورة فى إحدى المجلات من أوائل القرن العشرين .. طرابيش .. عصى .. عربات تجرها الخيول ..

أشار (بيكر) لعربة حنطور وقال للحوذى :

- « بريتيش كاونسيل .. »

لسبب ما قالها بالإنجليزية مع أنه كان يجيد العربية منذ قليل ..

ثم هتف بها :

- « هل تأتين ؟ »

نظرت إلى القاهرة العزيزة التى لم ترها منذ عامين أو أكثر .. منذ بدأت تلك الرحلة ..

وقالت :

- « لا .. شكرًا .. سوف أقوم بجولة هنا .. »

وأردفت فى سخرية لم يلحظها :

- « لا تنس أننى أرى القاهرة للمرة الأولى .. »

قال وهو يركب العربة ، ويصلح من وضع قبعته :

- « إذن إلى اللقاء هناك .. فى بريطانيا. حفظ الله الملكة »

- « حفظ الله الملكة .. »

ووقفت (عبير) ترمق الحنطور إلى أن ابتعد ثم مشت فى الشوارع الخالية المتسعة التى رصفت بالحجارة .. وفى سرها كانت تغنى :

أنا النيل مقبرة للغزاة أنا الشعب نارى تبيد الطغاة

أنا الموت فى كل شبر إذا عدوك يا مصر لاحت خطاه

(بيكر) .. (سبيك) .. (ليفنجستون) .. (ستانلى) .. (ثورن) .. بحيرة (إدوارد) .. بحيرة (فكتوريا) .. مساقط مورشيسون .. ريبون .. عطبرة .. كل هذا من أجل هذه اللحظة .. وبعد قليل يتجه النيل إلى البحر المتوسط ليفضى بأسرار حبه هناك ..

كان هذا عندما شعرت بتلك اللمسة على كتفها فاستدارت لترى المرشد ..

ـ « لقد انتهت المغامرة يا (أليس) .. »

ـ « أعرف .. »

ـ « يبدو منظرك مرعبًا .. لو انتظرنا أكثر لنمت لحيتك .. لا أرى فى مظهرك ذرة أنوثة واحدة دعك من رائحتك الكريهة . »

ـ « أعرف .. لا تنس أننى أمضيت عامين فى مجاهل إفريقيا .. لم أكن أحيا حياة مترفة مثلك .. »

وعند طرف الشارع رأت قطار (فانتازيا) ينتظر .. يبدو أنه يستعمل خطوط الترام الذى سيدخل مصر قريبًا جدًا ..

اتجهت إليه ، وقد قررت أن تستحم فى أول فرصة ..

سألها وهو يساعدها على ركوب القطار :

ـ « ما هذا الذى تدندنين ؟ »

قالت كالحالمة :

سمعت فى شطك الجميل ما قالت الريح للنخيل

يسبح الطير أم يغنى ويسكب الحب للخليل

★ ★ ★

فى القصة القادمة تعيش (عبير) أكثر لحظات حياتها توترًا وإرعابًا .. سوف تسترجع قواعد اللغة العربية التى نسيتها .. لأنها ستواجه عبقرى أوزان الشعر (الخليل بن أحمد) ، وعددًا من عمالقة اللغة العربية من وزن (سيبويه)؛ ذلك العبقرى الذى مات وفى نفسه شىء من (حتى) !

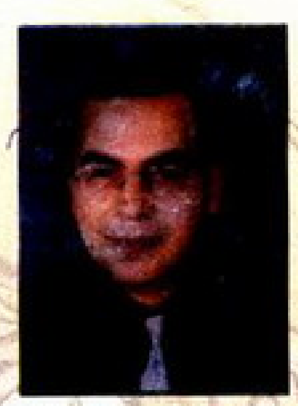
★ ★ ★

تمت بحمد الله



مغامرات ممتعة
من أرض الخيال





د. أحمد خالد توفيق

أسطورة نهر

نحن فى القرن التاسع عشر ، وقد بدأ العلم يزيح الستار عن ألغاز عديدة ما انفكت مبهمة منذ بدء الخليقة ، لكن لغز هذا النهر لم يُحلَ بعد .. من أين ينبع ؟..

اليوم تنطلق (عبير) مع عدد من المستكشفين البريطانيين ومنهم (ستانلى) و(بيكر) .. تتوغل فى قلب القارة السوداء المتوحشة بحثاً عن الجواب الصحيح لهذا اللغز...

الرواية القادمة

شيء من حتى !



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية
٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية الرقم البريدى ١١٣٨١
ت: ٠٢-٥٩٢٨٢٠٢-٦٨٣٥٥٥٤-٢٥٨٦١٩٧

الثمن فى مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم